مجلة كلية الآداب

الهجوم البيزنطي على دمياط سنة ٨٥٣ م
رؤية جديدة

د. وديع فتحى عبد الله
أستاذ مساعد
قسم التاريخ – كلية آداب بنها

العدد الحادي عشر يوليو ٢٠٠٤

الهجوم البيزنطي على دمياط سنة ٨٥٣ م

رؤية جديدة

للصراع البحري البيزنطي الإسلامي فى القرن التاسع الميلادي

تمهـــيد :

يمـــثل الهجـــوم البيزنطي على دمياط فى سنة ٨٥٣ م حلقة مهمة فى حلقات الصراع البيزنطى الإسلامي . وقد وقع هذا الهجوم فى العقد الأول من النصـــف الثانـــي من القرن التاسع الميلادي فى أعقاب الهزائم الموجعة التى أنـــزلها المسلمون بالبيزنطيين فى شرق الإمبراطورية وغربها . ففى الشرق كان على بن يحيي الأرمنى ،قائد الخليفة العباسي المتوكل(٨٤٧ – ٨٦١ م) ، قـــد شن غارتين ناجحتين على الثغور الشامية التابعة للإمبراطورية البيزنطية فـــى عـــامى ٨٥١ م ، ٨٥٢ م . وعلـــى الجبهة الغربية للإمبراطورية منى البيزنطـــيون بهـــزائم متتابعة أمام المسلمين فى صقلية فى الفترة بين ٨٤١ : ٨٥١ م ، واستولى المسلمون على مواقع كثيرة فى هذه الجزيرة . وبين هاتين السلســـلتين من الهزائم وردت إلى بيزنطة ، معلومات عن شحنة من الأسلحة فى دمياط ينوى المصريون إرسالها إلى مسلمي كريت ، التى كانت شوكة فى جنـــب الإمبراطورية البيزنطية منذ استيلاء المسلمين عليها فى ٨٢٧م ، والتى أخفقت كل محـــاولاتهم لاستردادها منهم فكان لابد من شن هجوم على دمياط وتخريبها ، والاستيلاء على هذه الشحنة .

وفيما يتعلق بالمصادر التى أرخت لهذه الفترة ، فقد لوحظ إنه على الـــرغم مـــن النجاح الكبير الذى حققه البيزنطيون بهذا الهجوم ، فقد التزمت المصـــادر البيزنطـــية الصـــمت الـــتام إزاءه ، فخلت الساحة بذلك للمصادر الإسلامية لتصبح هى النافذة الوحيدة التى نطل منها على ملابسات هذا الهجوم ونـــتائجه مـــن المـــنظور الإسلامي . ورغم اعتماد المؤرخين المحدثين على المصادر الإسلامية فى تناولهم لهذا الحدث بالبحث والتحليل ، فإنه يؤخذ عليهم أنهـــم لـــم يضـــعوا هذا الحدث الكبير فى إطاره الصحيح ، ولم يتطرقوا إلى مقدماتـــه التاريخـــية البعيدة وأهدافه الاستراتيجيـــة والتكتيكية . فأخذت رواية

هـؤلاء المؤرخين للهجوم على دمياط طابعاً سردياً محضاً دون أى إشارة إلى أسبابه ودوافعه الحقيقية ، ولم تزد إشاراتهم إلى الحدث عن شذرات مبعثرة .

وربمـا كانـت مقالـة فلاديسلاف كوبياك التى نشرت تحت عنوان " الهجوم البـيزنطى على دمياط فى ٨٥٣ م ، والبحرية المصرية فى القرن التاسع "[١]، هى أول محاولة لوضع هذا الهجوم فى إطاره الصحيح ، على الأقل فيما يتعلق بـتطور القوة البحرية المصرية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . ورغم ان الهجـوم البيزنطـي علـى دمياط سنة ٨٥٣ لم يكن يمثل الفكرة الأساسية لموضـوع هـذه المقالة ، فإنه كان بمثابة النقطة المرجعية ، إن جاز التعبير، لدراسة أحوال البحرية المصرية قبل الهجوم و بعده. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الذى يطرح رؤية جـديدة لهذا الهجوم تمثل – بقدر ما نعرف – أول محـاولة لدراسته وتقييمـه من المنظور الاستراتيجي للصراع الطويل بيـن البيزنطيين والمسلمين ؛ وإبراز أهمية الدور الإقليمي والدولي لمصر من خـلال هـذه الأحداث ؛ وإلقاء الضوء على جانب مهم من جوانب الشخصية المصـرية تجلى فى مقاومة الغزاة على مر العصور ، وعدم استسلام مصر للهزيمة والنهوض من كل كبوة أقوى وأعز مما كانت .

وقد اقتضى هذا الطرح الجديد للمسألة استعراض المقدمات التاريخية التى أدت إلـى الهجوم البيزنطي على دمياط فى ٨٥٣ م من خلال التعرف على الأوضاع فى البحرية المصرية قبل هذا الهجوم ؛ واستجلاء حقائق الصراع الـبحري البيزنطـي الإسـلامي حول جزيرتى كريت وصقلية بوجه خاص وتأثـيره علـى موضـوع الدراسة ؛ ورسم صورة أكثر دقة لأهداف هذا الهجـوم ، لبـيان الهـدف الاسـتراتيجي العـام وهو القضاء على التهديد الإسـلامي المتنامـي للممتلكات والسواحل البيزنطية فى البحر المتوسط ، والأهـداف التكتيكـية الـتى حـاول البيزنطـيون من خلالها تحقيق هدفهم الاسـتراتيجي الأكـبر، وبعد هذا العرض لمقدمات الهجوم ، والتزاماً بمنهج الترتيـب الزمنـي للأحداث ، تم إلقاء الضوء على ملابسات هذا الهجوم من

١- kubiak, W. B., The Byzantine Attack On Damietta In 853 and the Egyptian Navy in9TH Century, In : Byzantion, VOL. XI, Bruxelles, 1970, PP 45-66.

حيث أسباب اختيار دمياط لتكون هدفاً للضربة البيزنطية ؛ ووقائع الهجوم الفعلي على المدينة ؛ والرد عليه على المستويين الشعبي والرسمي ، والنتائج التى تمخض عنها الهجوم فى المعسكرين البيزنطي والإسلامي .

ونظراً لانفراد المصادر العربية برواية هذا الحدث ، والغياب الكامل لأى إشارة إليه فى المصادر البيزنطية ، فقد كان لابد من تناول هذه المصادر العربية بشيء من الدراسة والتحليل لبيان الأهمية النسبية لكل منها فى تناول الحدث موضوع البحث . حيث تبين أن رواية الطبري هى أكثر هذه الروايات اكتمالاً وأقربها إلى المنطق والواقع التاريخي . ومع ذلك ، فقد تم الرجوع – للأمانة العلمية – إلى المصادر البيزنطية المعروفة فيما يتعلق بالأحداث التى جرت فى منطقة البحر المتوسط فى الفترات السابقة على الهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م والفترات اللاحقة عليه. كما استفاد الباحث من آراء بعض المؤرخين المحدثين فى هذا الهجوم ، وأخضعنا هذه الآراء لمنهج التحليل العلمي لأحداث التاريخ.

واختتم البحث بعرض لأهم نتائج الهجوم وتأثيره على النهوض بالبحرية المصرية ، وإعادة بناء الأسطول ، وتحصين الثغور البحرية وتعزيز دفاعاتها وبيان دلالة ذلك كله على تكوين الشخصية المصرية الرافضة للاستسلام . كما أوضحنا من خلال عرضنا لهذه النتائج مدى الإخفاق الذى منيت به المحاولات البيزنطية المتعاقبة للقضاء على التهديد الإسلامي للنفوذ البيزنطي فى حوض البحر المتوسط .

المقدمات التاريخية التى أدت إلى الهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م

تتمثل المقدمات التاريخية للهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م فى أحوال البحرية المصرية قبل منتصف القرن التاسع من جهة ، واستيلاء المسلمين على معقلين من أكبر وأهم المعاقل البيزنطية فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت من جهة أخرى ،وهما كريت وصقلية اللتان تزامن سقوطهما فى يد المسلمين فى عام ٨٢٧ م . ونستعرض فيما يلي هذه المقدمات بشيء من التفصيل.

أولاً: البحرية المصرية قبل الهجوم البيزنطي على دمياط فى ٨٥٣

فـــى ســـنة ١٢٩/٧٤٦هـــ ، خرجت حملة بحرية أموية من الإسكندرية لمهاجمة قبرص[١]ولكن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس(٧٤١ – ٧٧٥ م) أرســـل قائد أسطول الكيبرهايوت لمقابلتهم ،وبعد مواجهة عنيفة أبيد الأسطول الإســـلامي عـــن آخـــره تقريـــباً[٢]،وعلى الرغم من التفوق العددى لأسطول الإســـلامي[٣] ، فقـــد كان للنار الإغريقية – ذلك السلاح البيزنطي الشهير – أثرها فى حسم المعركة لصالح البيزنطيين [٤].

وكانـــت هزيمة الأسطول الإسلامي فى مياه قبرص على هذا النحو انتصـــاراً كبيراً للبحرية البيزنطية جعل كثيراً من المؤرخين المحدثين يرون أنـــه لـــم تقم للبحرية المصرية بعده قائمة ، بل ذهبوا إلى القول بأنه لم يكن

---

١ – لا تذكر المصادر الإسلامية شيئاً عن هذه الحملة ، انظر :

Theophanes, Chronographia, Ed, P. G. M. Tome CVIII, Paris, 1863, Cols 848-855; Cedrenus G., Historiarum Compendium, Ed. I. Bekker, 2 Vols, C. S. H. B., Bonn, 1839, p.9; Nicephorus Patriarchae, Breviarum Historiarum, Tome C, Ed. P. G. M., Paris,1860, Col. 972 .

٢ – Cedrenus, Historiarum, p. 9 ; Cf. Also : Ahrweiler, Helen, Byzance et la Mer, marine de guerre, la politique et les institutions maritime des Byzance aux VII au XV Siecles, Paris, 1966, pp 50-52 ; Lot, F., L'art Militaire et les Armees au Moyen Age en Europe et dans le Proche Orient, Tome Premier , Paris, 1946, p. 63.

٣ – بـــالغ المؤرخ اليوناني ثيوفانيس فى تقديره لعدد سفن المسلمين ؛ حيث ذكر أنها ألف سـفينة لـــم تعـــد مـــنها إلـــى الإســـكندرية إلا ثـــلاث ســـفن ، انظر: Theophanes, Chronographia, Col. 856 .

٤ – ينســـب اخـــتراع هـــذه الـــنار إلى مهندس سوري يدعى كالينيكوس كان لاجئاً فى القســـطنطينية . وقـــد عانى الأسطول الإسلامي كثيراً من هذه النار ، وظل هذا الاختراع لقرون عديدة السر العسكري الأعظم للإمبراطورية البيزنطية ، انظر:

Zenghelis C., le Feu Gregeois et les Armes a Feu des Byzantins in "Byzantion", Tome VIII, Bruxelles, 1932, p. 266 ff .

هـــناك وجـــود للأسطول المصري فى البحر المتوسط بين سنة ٧٤٧م التى وقعت فيها هذه المعركة وسنة ٨٥٣ م عندما هاجم البيزنطيون دمياط[١].

ولســـنا هـــنا بصدد إنكار وقائع تاريخية ثابتة ، تتمثل أساساً فى ان هزيمة الأسطول الأموى أمام قبرص تمثل منعطفاً خطيراً فى تاريخ الصراع الـــبحري بين المسلمين والبيزنطيين على المستوى الاستراتيجي العام . فقد آلت السيادة على مياه البحر المتوسط ، بهذا الانتصار البيزنطي الكاسح ، إلى الإمـــبراطورية البيزنطـــية وانتهى الصراع البحري الطويل بين البيزنطيين والأمويـــين لصالح بيزنطة[٢]. كما أن أحداً لا ينكر أن سقوط الدولة الأموية بعد ثلاث سنوات من هذه الهزيمة وقيام الدولة العباسية سنة ٧٥٠ م / ١٣٢ هـــــ كان إيذانا بتوقف النشاط البحري للمسلمين فى مصر والشام لانصراف الدولة العباسية عن شئون البحر بسبب مشاكلها الداخلية والخارجية من جهة، وانصـــراف الدولـــة البيزنطية من جهـــــة أخرى عن المصادمات البحرية بسبب الفتن الداخلية التى كانت تعانى منها [٣].

١- Anastos M.V Iconoclasm and Imperial Rule 717 – 842, in Cambridge Medieval History, Vol IV, Part 1, second ed., Cambridge, 1967, p 74; Brooks E.W., The Struggle With the Saracens, 717 – 867, in C.M.H, Vol. IV, Cambridge, 1936, p 121 ; Brooks, E.W., The Relations between the Byzantine Empire and Egypt From the New Sources in B. Z, Vol. XVII, Bruxelles, 1913, pp 383 – 384 .

راجع أيضاً : أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ٥٠٠ – ١١٠٠ م ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

٢ - وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصـــف القرن الثامن الميلادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨١، ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

٣ - ويـــرى البعض أن النشاط البحري للمسلمين فى مصر والشام قد توقف فى بداية العصر العباســـي فـــترة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، وهو الرأى الذى يختلف عما توصل إليه البحـــث فـــى الصـــفحات التالية . انظر : السيد عبد العزيز سالم ، دراســـــات فى تاريخ العرب، العصر العباسي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ص ٢٨٤ .

ومـــن الضرورى توضيح خطورة الانزلاق وراء مزاعم من ذهبوا إلى حد القول بتوقف نشاط البحرية المصرية تماماً فى هذه الفترة (من ٧٤٧ إلى ٨٥٣ م) . ففى هذا القول من التجنى على البحرية المصرية بقدر ما فيه من الإهدار للحقيقة العلمية . وبداية فإن الزعم بعدم وجود أسطول أو بحرية لفـــترة تـــزيد على مائة عام فى بلد تمتد سواحله البحرية لمسافة تقترب من ٢٩٠٠ كـــيلو مـــتر [١] ويخترقه من أقصاه إلى أقصاه واحد من أعظم أنهار العـــالم بـــل أطول هذه الأنهار فعلاً وهو نهر النيل هو زعم يدل على عدم المعرفة بأبسط مبادئ العلوم الجغرافية وأثر التضاريس على حياة الشعوب . وبعيداً عن الواقع الجغرافي لمصر، فإن الواقع التاريخي ، إذا أحسن رصده والاستدلال به ، يثبت زيف هذا الزعم ، ويستنهض همم الباحثين لبذل المزيد من الجهد فى البحث والتنقيب فى خبايا الفترة التى نحن بصددها .

ونعـــرض فـــيما يلـــى لعدد من الوقائع التاريخية الدالة على نشاط الـــبحرية المصـــرية فى النصف الثانى من القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الميلادى .

١ – ففـــى سنة ٧٥٠ م ، أنزل حاكم الإسكندرية سفناً جديدة فى البحر وقد تحـــدث ســـاويرس بـــن المقفع عن هذه الواقعة فى تاريخه لبطاركة الكنيسة القبطـــية فى الإسكندرية[٢] وهذا الحدث الذى جاء بعد ثلاث أو أربع سنوات فقـــط من هزيمة الأسطول فى قبرص ، خير دليل على سرعة رد المسلمين الـــذى تمـــثل فـــى إعادة بناء أسطولهم فى زمن قياسي . وإذا كان الهجوم البيزنطـــي علـــى دمياط فى عام ٨٥٣ م هو الشرارة التى فجرت الاهتمام بالـــبحرية وإعـــادة بناء الأسطول على النحو الذى أوردته مصادر الفترة ،

---

١ - يمـــتد الســـاحل الشمالي لمصر بين رفح والسلوم لحوالي ٩٦٥ كيلومتراً ، بينما يبلغ طـــول ساحلها الشرقي الممتد من بئر طابا إلى الحدود المصرية السودانية حوالي ١٩٣١ كيلومتراً. انظر : محمد فاتح عقيل : أهمية الموقع الجغرافي لجمهورية مصر العربيـــة ، فى : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣ ، ص ١٧ .

٢ – ســـاويرس بـــن المقفـــع ، تاريخ بطاركة الإسكندرية ، إعداد الأنبا صموئيل ، النعام للطباعة والتوريدات ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

فلماذا نستبعد أن يكون الشيء نفسه قد حدث فى أعقاب هزيمة الأسطول فى قبرص ، لاسيما إذا علمنا أن هذه السفن التى أنزلت فى الإسكندرية نجحت فى الإغارة على جزيرتي صقلية وسردينيا فى عام ٧٥٢ م / ١٣٤ هـ[١]

٢ – وفى سنة ٧٥٠ م أيضاً اخترع مصرى يطلق عليه كاتب سيرة حياة البطريرك ميخائيل اسم (عبد الرحيم) طريقة تجعل السفن الحربية المصرية منيعة أمام النار الإغريقية . وذكر هذا المصدر أن عبد الرحيم هذا كان مسئولاً عن كل ترسانات مصر ، وأن الاختراع المذكور هو قطن مخلوط ببعض المعادن .

كما يروى كاتب السيرة أيضاً إنه رأى أثر الاختراع بعينيه فقد ضربت النار الإغريقية السفن ، ولم تشتعل بل انطفأت النار فى الحال [٢] وهى أمام محاولة علمية حقيقية لتعزيز قدرة السفن الحربية المصرية على الصمود أمام اخطر وأقوى الأسلحة البحرية المعروفة فى ذلك الوقت ، وهى النار الإغريقية ، وإذا لم تكن هذه المحاولة قد تمت فى إطار تطوير الأسطول الحربي فى مصر بعد هزيمته فى قبرص بسبب النار الإغريقية ، فما جدواها إذن ؟ . ولماذا أوردها المصدر بهذا التفصيل ؟ إن المعنى الوحيد الذى يمكن استخلاصه من هذه الواقعة ، التى تزامنت مع إنزال سفن جديدة فى الإسكندرية على النحو الوارد فى الفقرة السابقة هو أن إبادة الأسطول الإسلامي المصري أمام قبرص فى سنة ٧٤٧ م لم تكن إلا حلقة فى سلسلة من الكر والفر ، أو الحرب السجال التى دارت فى البحار بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامى ، أى أنها لم تكن إلا كبوة سرعان ما نهضت بعدها البحرية المصرية تجدد شبابها وتبنى سفنها وتعزز دفاعاتها . ولكن ما يمكن أن نستدل عليه من رواية هذا الاختراع العجيب لا تتوقف عند هذا الحد ففى رواية كاتب سيرة البطريرك ميخائيل أكثر من تلميح إلى طبيعة النشاط البحري فى ذلك العام . من ذلك إنه رأى بعينيه أن النار الإغريقية قد ضربت السفن ولم تشتعل ، بل انطفأت النار فى الحال . فمتى كان ذلك إن لم

---

١ – وديع فتحى عبد الله ، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدني الإسلامي(٧٤١ – ٨٢٠ م/ ١٢٤ – ٢٠٥ هـ) ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ١٣٧.

٢ – ساويرس بن المقفع ، بطاركة الإسكندرية ، ج ١ ، ص ١٥١ .

يكـــن قد جرى اشتباك فعلى بين السفن البيزنطية والسفن المصرية ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن هذا الاشتباك ولكن إشارة المصدر إليه واضحة . فإذا أضيف إلـــى ذلـــك إشـــارته إلـــى أن الشخص المسئول عن هذا الاختراع هو نفسه المســـئول عـــن " كل " أحواض السفن أدركنا دون عناء أنه فى سنة ٧٥٠ م كانت توجد فى مصر عدة أحـــواض للسفـــن ، يتولى مسئوليتها كلها شخص واحد ذكر المصدر أيضاً أنه مسئول عن شئون الحكم .

٣ – تفصـــل ســـيرة حياة البطريرك ميخائيل رواية المعارك التى جرت فى مصـــر بين الأمويين وأنصار العباسيين فى الفترة من ٧٤٤ م إلى ٧٥٠ م ، فـــتذكر أن قوات الأمويين أحرقت كل السفن التى استطاعت الوصول إليها علـــى الجانـــب الشـــرقي مـــن النيل لمنع أعدائهم من عبوره ، بل أن الابن الأصغر لمروان حاول إحراق المباني الموجودة على جزيرة الروضة وسفن الأسطول الراسية هناك ولكنه لم ينجح وأطفأ السكان النيران فأنقذوا عدداً من السفن [١] . إذا فإن الأسطول المصرى كان له وجود ملموس ومؤثر على نهر النـــيل عـــند وقوع المعارك بين الأمويين والعباسين وقبيل إحراق الأمويين لسفن هذا الأسطـــول فى سنة ٧٥٠ م .

٤ – وفى أبريل ٧٥٤ م ، أرسل عامر بن إسماعيل من قبل صالح بن على حاكم مصر إلى الإسكندرية ليجهز المراكب إلى طرابلس كما ذكر الكندي ، وإن كان البعض قد ذكر أن وجهة الحملة كانت برقة [٢]

٥ – وحوالى سنة ٧٧٠ م ، يؤكد كاتب سيرة حياة البطريرك مينا أن الشيطان أوعز إلى راهب شماس اسمه بطرس أن يطلب الأسقفية ولم يكن أهلاً لها . ولمـــا رفض البطريرك طلبه ، جمع مالاً كثيراً وتقرب إلى الخليفة أبي جعفر فحصـــل مـــنه علـــى خطاب إلى عبد الله بن عبد الرحمن والى مصر ليقيمه بطريـــركاً علـــى مصر . فاستدعى الوالي البطريرك من الإسكندرية ورفض الـــبطريرك تنفـــيذ الأمر فأمر الوالي باعتقاله واستدعى الأساقفة ظناً منه أنهم سيطيعون بطرس ، ولكنهم قاوموه ومنعوه من الصلاة كبطريرك .

---

١ – Kubiak, Damietta, p 48 .

٢ – الكـــندي ، تاريخ ولاة مصر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٨٥ . راجع أيضاً : Kubiak, Damietta, p 49 .

فغضب عليهم وأمر باعتقالهم وتكبيلهم بقيود حديدية فى رقابهم وأرجلهم وقال للبطريرك مينا " لن يعمل أحد المشاق بالزفت غيرك وأساقفتك بأيديكم " فاجابه البطريرك : " أنا أفعل هذا مسروراً " فألزم هذا المخالف(بطرس) الأب البطريرك مينا والأساقفة بالعمل بأيديهم فى صناعة المراكب لمدة عام وتحت حرارة الشمس فى فصل الصيف أمام الناس [١].

ورغم أن هذه الرواية تتعلق باضطهاد رجل دين مسيحي على يد رجل دين مسيحي منافس له ، فإنها تنطوى على إشارة لا تخفي إلى أن العمل فى ترسانة الفسطاط كان يجرى فى ذلك الوقت ، وبالتالي فإن وجود الأسطول فى ذلك العام كان أمراً مؤكداً فالعمل الوحيد الذى يناط بالترسانات أو دور الصناعة كما كان يطلق عليها هو بناء السفن أو إصلاحها .

٦ – وفى سنة ٧٩٠ م / ١٧٤ هـ ، كانت بعض السفن الإسلامية فى طريقها من مصر إلى الشام حاملة قوات عسكرية استعداداً لشن هجوم على قبرص ، ولكن أسطولاً بيزنطياً هاجمها وأسر عدداً من جنود البحرية المصرية . فرد هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٨ هـ / ٧٨٦ – ٨١٣ م) بإرسال أسطول إلى قبرص اشتبك مع أسطول أرسلته الإمبراطورة إيرين (٧٩٧ – ٨٠٢ م) فى معركة حامية تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة ، وكان النصر فيها للعباسين الذين أسروا أمير البحر ثيوفيلوس وعرض عليه هارون الانضمام إلى المسلمين فرفض فقتله هارون [٢] .

---

١ – ساويرس بن المقفع ، بطاركة الإسكندرية ، ج١ ، ص ٢٠١ .

٢ - Theophanes, Chronograhia, Col. 936 ; 73 ; Cf. Also: Brooks, Relations , pp 385- ff;- Canar,Marius, Byzantium and the Muslim World to the Middle of the Eleventh Century, in: C.M.H., Vol.IV, Part I, Cambridge, 1967, p 706.

٧ – وفـــى ســـنة ٨٠٦ م / ١٩٠ هـــ ، ولى الرشيد حميد بن معيوف الحمدانـــى ســـواحل بحر الشام ومصر ، فغزا جزيرة قبرص عندما نقض أهلها العهد مع المسلمين ، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفـــــاً [١] . كما غزا جزيرة كريت[٢].

٨– وفـــى ســـنة ٨٠٧ م / ١٩١ هـــــ أغار حميد بن معيوف على جزيرة رودس، وعاد محملاً بالغنائم والأسرى ، ولكن العواصف دمرت أسطوله فى طريق العـــودة[٣].

كما قام الأسطول العباسي بقيادة حميد أيضاً بمهاجمة كريت فى نفس العام وسيطر على بعضها ، ولكن بيزنطة استعادتها بعد ذلك [٤].

٩– أخيراً ، فقد شهدت مصر فى سنة ٨١٤ م / ١٩٩ هـــ حدثاً مهماً كانت لـــه آثـــار بعـــيدة علـــى الصعيدين المحلى والدولي ، وهو قدوم طائفة من المغامرين عرفوا فى التاريخ باسم الأندلسيين وكانت حقيقتهم مثار جدل كبير انـــتهى إلى أنهم كانوا خليطاً من الغزاة البحريين الذين اعتادوا النزول بمياه الإسكندرية بعد كل غزو يقومون به لسواحل أوروبا الجنوبية وجزر البحر المتوسط [٥].

١– الطـــبري (محمـــد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـــ ١٩٦٦م ، ج ١٠، ص ٩٩؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، راجعه وصـــححه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج ٦ ، ص ١٩٦ ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفـــاء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهـــرة ، ١٣٩٥ هـــ ، ١٩٧٥ م ، ص ٤٦٠ .

٢ – الـــبلاذرى (أبـــو الحســـن أحمد بن يحيي) ، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٣٣٠ .

٣– Theophanes, Chronograhia, Col. 972 ; Cedrenus, Historiarum, pp 69-73 ; Cf. Also : Finlay, George, History of the Byzantine Empire from DCCXVI to, MLVII , London, 1906, p 95.

٤– Cedrenus, Historiarum, pp 70-72

٥ – الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٢٥ .

وثوار حي الربض بقرطبة الذين تفرقوا فى البلاد الأندلسية خوفاً من بطش الأمير الحكم بهم [١].

وقد أقام الأندلسيون فى الإسكندرية من سنة ٨١٤ م / ١٩٩ هـ حتى سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ ، وتمكنوا من استغلال الأوضاع السياسية السيئة فى مصر ، والنزاع بين العرب على ولاية الإسكندرية فدخلوا طرفاً فى النزاع حتى استولوا على الإسكندرية عنوة واستبدوا بشئونها . وهنا أرسل الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر الذى سيطر على الأوضاع ، وأخرج الأندلسيين من مصر فى سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ [٢]فتوجهوا إلى كريت لسابق معرفتهم بها حيث كانوا قد أغاروا عليها أكثر من مرة [٣]. الأندلسيين الذين رسوا بمراكبهم على شاطئ الإسكندرية فى عام ٨١٤ م / ١٩٩ هـ جاءوا فى أربعين مركب [٤]، وحدد اليعقوبي عددهم بأربعة آلاف رجل[٥] .

ولا شك أن وجود أسطول حربي قوامه أربعون سفينة بأطقمها من الملاحين والمحاربين ، الذين لا عمل لهم إلا الغزو والقتال ، كان يمثل إضافة لا يستهان بها للدفاعات الساحلية . ثم إن هذا العدد الكبير من السفن كان يحتاج إلى عناية وإصلاح ، بل وإلى سفن جديدة تحل محل السفن القديمة أو المدمرة . أى أن أحواض السفن فى الإسكندرية شهدت نشاطاً كبيراً أثناء وجود هذا الأسطول بها ، وهو ما يتناقض مع القول بتوقف النشاط البحري تماماً فى مصر فى هذه الفترة [٦] .

---

١ – ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق : س. كولان ، وليفى بروفنسال ، ج١ ، ليدن ، ١٩٤٩ ، ص ص ٧٦ – ٧٧

٢ – اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠، ص٤٦١ ؛ الكندي، ولاة مصر ، ص ١٥٨؛ راجع أيضاً : السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية ، ١٩٩، ٢ ج ، ج ١ ، ص٤١.

٣ – ساويرس بن المقفع ، بطاركة الإسكندرية ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

٤ – الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٣٠ .

٥ – اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبى ، ص ٤٤٦ .

٦– Kubiak, Damietta, p 53 .

ثانياً : اخفاق المحاولات البيزنطية فى استرداد كريت . وأثر ذلك فى شن الهجوم البيزنطى على دمياط عام ٨٥٣م.

ما أن طرد الأندلسيين من مصر في سنة ٨٢٧ م/٢١٢ هـ [١] حيث توجهوا إلى كريت ، فأقاموا بها ملكاً وراثياً دام لأكثر من مائة وثلاثين سنة من عام ٨٢٧م / ٢١٢ هـ حتى ٩٦١م / ٣٥٠هـ [٢] وأذاقوا خلالها البيزنطيين الأمرين ، فكانت فاتحة خير لهم وللمسلمين ونذير شؤم للبيزنطيين [٣].

---

١ - ذكرت المصادر البيزنطية أن هذا الفتح تم أثناء انشغال الإمبراطور ميخائيل الثانى بالقضاء على ثورة توماس الصقلبى أو بعدها ، أى بين الفترة من ٨٢١ : ٨٢٣ م . انظر :

Monachus, G., (Imperatorum), Vita Recentiorum Imperatorum, in Theophanes Continuatus , Ed. Bekker, I, C. S. H. B. , 1838, p 787; Constantine Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, Ed, Bekker, I, C. S. H. B., Bonne, 1840, Ch 22, p 104 ; Theophanes Continuatus, Historia, Ed. Bekker, I ,C. S. H. B., Bonn, 1838, pp 73 – 74; Symeon Magister (Logothete), Chronographia, in Theophanes Continuatus., Ed. I. Bekker (Bonn, 1838) pp.758 – 760; Zonaras, I., Epitome Historiarum, ed. M. Pindar, B. Buttner, Wobst, 5 vols, Bonn, 1841- 1897, Tome III, pp 347- 348 ; Genesius, J., Regna. Ed. Lachman, C., C. S. H. B., Bonn, 1834, pp 48-49.

بينما ذكر الطبرى أن الفتح الإسلامى لكريت كان فى ربيع الأول عام ٢١٢هـ النصف الثانى من يونيو ٨٢٧ م ، وهو الرأى الأقرب إلى الصحة ؛ لا سيما وأن المؤرخين البيزنطيين قد أهملوا تماماً خروج الأندلسيين من مصر ، بينما كان الطبرى ، والمؤرخون العرب بشكل عام ، أكثر دقة فى تتبع حركة الأندلسيين حتى خروجهم من مصر . انظر : الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ ؛ وأيضاً : إسمت غنيم ، الإمبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، الإسكندرية، ١٩٨٣ ، ص ٦٥-٦٦ .

٢ – Genesius, Regna, p. 47 ، انظر أيضاً: إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ، مشروع الألف كتاب، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص٨٦ .

٣ - وأثبتت الأحداث بعد ذلك صدق ياقوت من أن كريت كانت " من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم "إذ ما لبثت كريت أن دخلت فى طاعة الخليفة العباسي لتستظل بحمايته ، وأصبحت كريت فى التقسيم الإداري للدولة العباسية إقليماً تابعاً لمصر. انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥ ، المجلد الأول ، ص ٢٣٦. - و أبو حنيفة محمد النعمان ، المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقيه ، دار المنتظر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٦م ، ص ٤٤٣ – ٤٤٥ ؛ وانظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩ .

ولأن الدولـــة تنبهـــت إلى خطورة استقرار المسلمين فى كريت ، فبدأت سلسلة من المحاولات المستميتة لاستردادها رغم أن هذه المحاولات لم تكلـــل بالـــنجاح؛ إلا أن أهميـــتها لهذه الدراسة ترجع إلى كونها واحدة من المقدمات التاريخية – على المدى البعيد – للهجوم البيزنطى على دمياط فى عام ٨٥٣م / ٢٣٨هـ.فقد كلـــف الإمبراطور البيزنطي ميخائيـــل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩ م) قـــائده فوتينوس بمهاجمة كريت عام ٨٢٨م، ولكنه عجز عن دخولها رغم العون الذى وصله[١] . وفى خريف ٨٢٨ م ، لم تمكن حملة بحـــرية أخرى تتألف من سبعين سفينة تحت قيادة كراتيروس ، من استعادة كريـــت[٢].وفى عام ٨٢٩م ، نظم ميخائيل الثانى حملة ثالثة لاسترداد كريت عهـــد بقـــيادتها إلى قائد يدعى أوريفاس ، ولكـــــن جزءا من أسطول هذه الحملـــة وقـــع فى كمين أعده المسلمـــون بينما أشترك الجـــزء البـــاقى فى معركة بحرية مع المسلمين دمر خلالها[٣].

وفـــى عصـــر الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢ م) ، توقفـــت محـــاولات الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد كريت رغم الغارات

---

١ – طلب العون من الإمبراطور الذى أرسل إليه القائد دميان على رأس جيش كبير . ولكن النصر كان حليف المسلمين ولقى دميان حتفه وفر فوتينوس فى قارب أنظر :
Theophanes Continuatus, Historia, pp 67–77; Cedrenus, Historiarum, p 94; Zonaras, Epitome, Tome III, p 399 وانظر أيضاً :على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلى العاشر الميلادي ، فى : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية١، ١٩٧٣ ، ص ٣١٣ .

٢ – انتصركراتيروس على المسلمين الذين انسحبوا إلى داخل الجزيرة ، ولم يتعقبهم البيزنطيون فعادوا ليلاً وهاجموهم وأبادوهم عن آخرهم وشنقـــوا كراتيروس . انظر:
Genesius, Regna, pp 48-49; Theophanes Continuatus, Historia, pp 79 – 80; - Symeon Magister, Chronographia, pp.621 – 623 Zonaras, Epitome, p 350.

٣ – Genesius, Regna, p 50; Symeon Magister, Chronographia, pp.621– 623
Theophanes Continuatus, Historia, p 81

العنيفة التى شنها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية[1]. يرجع ذلك إلى انشغاله بالحروب مع المسلمين على الجبهة الشرقية للإمبراطورية وهى الحروب التى استحوذت على جانب كبيرمن اهتمامه ونشاطه العسكري طوال عهده[2] إلا أن الهزائم التى أنزلها مسلمو كريت بالإمبراطورية البيزنطية قد دفعت ثيوفيل دون شك إلى التماس المساعدة العسكرية من الخليفة الأموى فى الأندلس[3].

ولكن مشروع هذا التحالف لم يخرج إلى حيز التنفيذ لانصراف الأمير عبد الرحمن إلى مواجهة الأزمات الداخلية فى

١ - بمجرد أن تولى ثيوفيل العرش فى أكتوبر ٨٢٩ م ، خرجت من كريت حملة بحرية قدر المؤرخ البيزنطي موناخوس عدد سفنها بخمسين سفينة حربية هاجمت شواطئ أيونيا وكاريا على الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى ،كما هاجمت أديرة الرهبان فى جبل آتوس وهو أحد الجبال الموجودة فى منطقة ميزيا السفلى فى آسيا الصغرى . انظر : Theophanes Continuatus, Historia, p 137; Monachus, Imperatorum, pp 791 – 792; Cf. Also: Bury, J.B., A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, 802-867, London,1912, pp 290-291. ثم أغار أسطول من كريت فى عام ٨٢٩ م على سواحل تراقيا واستولى المسلمون على غنائم وأسرى ، ولكن كونتوميتيس حاكم تراقيا فاجأ الأسطول الكريتي ، ودمره تماماً حسب رواية صاحب صلة ثيوفان ولكن الأسطول الكريتي تقابل أثناء إغارته على جزر السيكلاديز Cyclades – بعد وقت قصير من هذه المعركة – مع أسطول بيزنطي عند جزيرة تاسوس فى بحر إيجة ، وأوقع المسلمون بالأسطول البيزنطي هزيمة مروعة ودمروه تماماً وللمزيد من التفاصيل:
Theophanes Continuatus, Historia, p 137-139.

٢- Theophanes Continuatus, Historia, p 137 .
وانظر أيضا : إسمت غنيم ،كريت ،ص ص ١١١- ١١٢ ، وديع فتحى عبد الله ، العلاقات السياسية بين الدولة البزنطية والخلافة العباسية فى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس ،رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ،يناير ١٩٨٢، ، الفصلين الثانى والثالث .

٣- المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق وتعليق محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى ، القاهرة (مطبعة السعادة)، ١٩٤٩م / ١٣٦٧ هـ ، ج ٢، ص ٨١؛ وانظر أيضاً : Finlay, Hist of the Byz Empire, p128.

بلاده [1] ، وإلى محاربة الإمبراطورية الرومانية الغربية [2]. وفى عهد ميخائيل الثالث ٨٤٢ –٨٦٧م. قاد اللوجوثيت ثيوكتيوس حملة بحرية على كريت فى عام ٨٤٣م/٢٢٩هـ ، ورغم أنه أرس أسطوله على ساحل كريت ، ونجح فى التغلب على المسلمين ، إلا أنه سرعان ماعاد وحده إلى العاصمة فمنيت الحملة بالإخفاق وعادت أساطيل كريت تهدد سواحل القسطنطينية نفسها[3].

وفى ظل استمرار استيلاء المسلمين على كريت وإخفاق البيزنطيين فى انتزاعها منهم مرة أخرى ، فإن محافظة مسلمى كريت على صلتهم بمصر تعتبر من المقدمات التاريخية – بل من الدوافع الأساسية – التى يتعين وضعها فى الاعتبار عند دراسة الأسباب الحقيقية وراء الهجوم البيزنطي

١ -محمد محمد مرسى الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين فى الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، الإسكندرية ، ١٩٨١م ، ص ٨٩ – ٩٠.

٢ – يحكى لنا المؤرخ المغربي المقرى عن سفارة أرسلها الإمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني (٢٠٧ / ٢٨٣ هـ/٨٢٢ – ٨٥٢ م)وذلك فى عام ٢٢٥ هـ(٨٣٩ – ٨٤٠ م) ، يطلب منه التعاون معاً فى عمل عسكري مشترك ضد العباسيين فى المشرق وضد جزيرة كريت أيضاً ، بحيث يؤول ملك العباسيين إلى الأمير الأموى ، أما كريت فلم يوضح ماذا سيتم بشأنها . ومن المرجح إنه طلب أن تعود إلى الدولة البيزنطية، أو على الأقل يمنع المسلمون بها من الإغارة على الممتلكات البيزنطية . وانظر أيضا : المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٢٤ ؛ وانظر أيضاً : إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى ، مشروع الألف كتاب، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ ؛ إسمت غنيم ، كريت ، ص ١٢٨–١٢٨ ؛ وديع فتحى عبد الله ، ثيوفيلوس ، ص ٢٣٣ –٢٣٩ .

٣ – لجأ المسلمون إلى الحيلة وأشاعوا أن متآمرين فى القسطنطينية يقومون بخلع الإمبراطور ، فعاد ثيوكتيستوس على الفور إلى القسطنطينية تاركاً جنده تحت رحمة المسلمين، وانظر : Georgius Hamartolus Monachus, Chronicon, P.G.M., Tome CX, Paris,1863, Col. 772; Leo Grammaticus, Chronographia, Ed. Bekker, I, C. S. H. B., Bonn, 1842, p. 229; Symeon Magister, Chronographia, p 654 . وانظر أيضاً : فازيليف ، العرب والروم ، الترجمة العربية ، محمد عبد الهادى شعيره، دار الفكر العربي ، ص ١٧٢، إبراهيم العدوي ، إقريطش ، بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثاني، أكتوبر ١٩٥٠ ، ص ٦٣؛ فتحى عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٨، السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

على مدينة دمياط . ففضلاً عن أن كريت أصبحت تابعة لمصر من الناحية الإدارية إثر انضوائها تحت لواء الدولة العباسية كما سبق القول ، فقد حافظ الأندلسيون على صلتهم بمصر فى العصور المتأخرة عندما استوطنوا كريت فعلاً . وكانت الموانئ المصرية تمثل أسواقهم الرئيسية لبيع فائض غنائمهم وبضائعهم بل ربما بنت لهم بعض السفن الجديدة [١] وفى ذلك قال المؤرخ أبو حنيفة النعمان " . ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتهم تمير أهل مصر ، وهداياهم تصل إلى عمالها " [٢] ومما يذكر إنه كان يحمل من كريت العسل والنحل والجبن الكثير لمصر [٣] أما مصر فكانت تمد كريت بكل ما تحتاجه من أسلحة [٤]، حتى غدت دار الصناعة لقراصنة كريت على حد تعبير المؤرخ فازيليف [٥].

ومن هذا المنطلق ، فإن العلاقات الوثيقة التى ربطت بين كريت الإسلامية ومصر ، بكل ما تمثله من ثقل فى ميزان العلاقات الدولية فى حوض البحر المتوسط فى ذلك العصر ، كانت حافزاً قوياً يدفع الإمبراطورية البيزنطية دفعاً إلى اتخاذ موقف عدائي من مصر وثغور مصر باعتبارها القاعدة التى ترتكز إليها إغارات المسلمين المتكررة على السواحل والممتلكات البيزنطية . وعندما توجه الأسطول البيزنطي لمهاجمة دمياط ، فإنه إنما كان يهاجم كريت بصورة غير مباشرة . ولو جاز أن نعتبر كريت – من المنظور الاستراتيجي – قاعدة بحرية متقدمة للخلافة العباسية فى البحر المتوسط تتبع مصر إدارياً ، فإنه يترتب على ذلك أن تكون مصر هى العمق الاستراتيجي لكريت فى هذا البحر بحكم الموقع الجغرافي ، ثم بحكم علاقات الود والصداقة التى ربطت بين مصر وكريت . فكان من المنطقى والحال كذلك أن توجه بيزنطة ضرباتها إلى العمق الاستراتيجي لكريت بعد

١- Kubiak, Damietta, p 54 .

٢ – النعمان ، المجالس ، ص ٤٤٤ .

٣ – إسمت غنيم ، كريت ، ص ١٣٧ .

٤ - الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

٥ - فازيليف : العرب والروم ، ص ١٨٧ .

أن منيت جميع المحاولات البيزنطية لاسترداد الجزيرة أو درء خطرها بالهزيمة والإخفاق .

ولا يغيب في هذا المقام أن مصر كانت تمثل الجبهة الغربية المعادية للإمبراطورية البيزنطية في حربها مع الخلافة العباسية ، وهو ما حدا ببعض المؤرخين إلى اعتبار هجوم الأساطيل البيزنطية على دمياط في ٨٥٣ رداً على الغارات الموجهة التي شنها على بن يحيي الأرمني على الإمبراطورية البيزنطية في ثغور الشام في ٨٥١ و ٨٥٢ م [١] . ومرة أخرى يبرز الدور الإقليمي لمصر بحكم الموقع الجغرافي من ناحية وبحكم الانتماء الديني من ناحية أخرى .

ثالثاً : فتح المسلمين لصقلية ،وأثر ذلك في توجيه الهجوم على دمياط عام ٨٥٣ م.

في الرابع عشر من يونيو عام ٨٢٧ م ، خرج أسطولان من خليج سوسة على الساحل الإفريقي ، أحدهما تحت قيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان في عهد الأمير زيادة الله بن الأغلب ، والآخر تحت قيادة إيفيميوس قائد أسطول صقلية [٢] وبلغ الأسطولان صقلية في السابع عشر من نفس الشهر ، ونزل الجند إلى مدينة مازارا وسيطروا على المدينة في لمح البصر بعد هجوم وصفه المؤرخون بإنه أعنف هجوم إسلامي تعرضت له الجزيرة[٣].

١ - انفرد الطبرى بذكر هذه الغارات ، ونقلها عنه ابن الأثير ، انظر : الطبري، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩١ ، وص ١٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٥ .

٢ - تمرد على الإمبراطور ميخائيل الثاني ، وأعلن نفسه إمبراطوراً وطلب العون من زيادة الله للاستيلاء على الجزيرة ليحكمها إيفيميوس بلقب (الإمبراطور) على أن يدفع الجزية للأمير الأغلبي ، انظر : فازيليف ، العرب والروم ، ص ٧١ – ٧٢ ، راجع أيضاً : Bury, E. R. E., p. 299 .

٣- Genesius, Regna, p 44-47; Theophanes Continuatus, Historia, p 81; Monachus, Imperatorum, pp 786 – 790.

وانظر أيضاً : محمد محمود منصور محمد ، بيزنطة ومسلمو أفريقية في عهد الأسرتين الأيسورية والعمورية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بنها ، ١٩٩٣، ص ١٢٧ – ١٣٢ .

وبـدأ بهـذا الفـتح فصـل جديد من مآثر المسلمين فى غـــرب البحر المتوسـط، و اللافـت للـنظر فى هذا الصدد هذا التزامن بين بدء السيطرة الإسلامية على كريت من جانب ، واندلاع شرارة الفتوحات الإسلامية لصقلية من جانب آخر . وبذلك يمكن القول بأن الوجود الإسلامي فى البحر المتوسط أصـبح سيفاً مسلطاً على أعناق البيزنطيين[1] ، وفى الفترة من ٨٤١ م إلى ٨٥١ م ، اسـتمر تقـدم المسلمين فى الجزيرة ، فاستولوا على كالتاجيرونى Caltagironi ومسـينا Messina ، وموديكـا Modica ، ليونتيني Leontini ، وراجـوزا Ragusa[2] ومع تولي عباس بن الفضل قيادة القوات الإسلامية فى صقلية خلفاً لأبيه الفضل بن جعفر فى ٨٥١ م ، زادت وتيرة الغزو فأرسل

١ - رغـم تنكر إيفيميوس لأسد بن الفرات واتصاله بالبيزنطيين لحثهم على مقاتلـــة المسلمين ، فقـــد واصل أسد بن الفرات تقدمه إلى سيراكوزا عاصمة الجزيرة آنذاك وجاءته الإمدادات من أفريقيا والأنـــدلس ، وحاصر سيراكوزا حتى عام ٨٢٨ م / ٢١٣هـ غير أن تفشى الوباء بين صـفوف المسـلمين أضعف موقفهـم وأجبرهم على رفع الحصار ومع ذلك ، فقد استعاد الجيش الإسـلامي شـجاعتـه بعد انتهاء الوباء وواصل تقدمه واستولى على بعض حصـون الجزيرة واستمرت الحرب سجالاً بين الطـرفين حتى استولى المسلمون على باليرمو فى سنة ٨٣١ م بعد أن حاصـروها لمدة سنة ، وأصبحت باليرمو هى القاعـدة التي تخرج منها الأساطيل الإسلامية لمهاجمـة سـواحل إيطـاليا والتعرض لمهاجمتهـا ، ومهاجمـة ما بقى للبيزنطيين من موانئ بالجزيرة ، انظر أيضاً : ابن الأثير ، الكامل ،ج٥، ص ١١٧ – ١١٩ ، ص ٢٠٠ –٢٠٣ وانظر أيضا :

TheophanesContinuatus,Historia,pp77-81;ConstantinePorphyrogenetus, Historia De Vita Rebus Gestis Basilu In Theophanes Continuatus, Liber 5, P. G. M., Tome CIX, Paris 1863, Cols. 304-305 ; Theophanes Continuatus, Historia,P.81; Symeon Magister, Chronographia, p 654; Cf. Also.Bury, E. R. E., p. 299-300 Amari, M., Storia dei Muslmani de Sicila, Vol. I, Siconda Edizione Modificata, Catania,1933, p 395 VolII , P5.
Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire 324 – 1453, the University of Wisconsin Press, 1952, P 118 ;Finlay, Hist of the Byz Empire, p 138

٢ - ابـن الأثـير ، ج ٦ ، الكـامل ، ص ٧٥ – ٧٦ ؛ راجـع أيضاً : إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوروبا، ص ٩٤ ؛ وانظر أيضاً :

Bury, E. R. E., p. 306; Vasiliev, Hist of Byz Empire, p 180 , Amari, Sicila, vol. 1 , p 315, Vol 2, pp 5-6.

السرايا إلى سيراكوزا وراجوزا وغيرهما من الحصون الهامة ، كما حاصر بثيرة Butera فى عام ٨٥٢ م لمدة خمسة أشهر حتى استسلمت[١] .

ومن ذلك يتبين أن سقوط صقلية فى يد مسلمى أفريقيا ، الذى تزامن بشكل غريب مع استيلاء الأندلسيين على كريت ، قد لعب دون شك دوراً كبيراً فى التمهيد للهجوم البيزنطى على دمياط عام ٨٥٣م ، كأحد الدوافع الحقيقية التى حاول البيزنطيون من خلالها ومن ذلك يتبين لنا أن سقوط صقلية فى يد مسلمي أفريقيا ، الذى تزامن بشكل غريب مع استيلاء الأندلسيين على كريت ، قد لعب دون شك دوراً كبيراً فى التمهيد للهجوم البيزنطي على دمياط فى عام ٨٥٣ م كأحد الدوافع الحقيقية التى حاول البيزنطيون من خلالها استعادة بعض ما فقدوه فى البحر المتوسط.

أهداف الهجوم البيزنطى على دمياط عام ٨٥٣م

هيأت هذه المقدمات التاريخية التى استمرت لأكثر من قرن من الزمان بين سنتى ٧٤٧ م ، ٨٥٣ م المسرح السياسي والعسكري لفصل جديد من ملحمة الصراع البيزنطي – الإسلامي فى حوض البحر المتوسط تمثل فى الهجوم البيزنطي على مدينة دمياط فى غيبة من جندها وحامياتها .

ولا شك أن مسألة استنباط الأسباب المباشرة لهذا الهجوم تبدو صعبة بسبب صمت المصادر البيزنطية إزاء هذا الهجوم[٢] وانفراد المؤرخين المسلمين كالطبرى[٣]، والكندى[٤] ، وابن الأثير[٥] ، وابن

١ – ابن الأثير ، ج ٦ ، الكامل ، ص ١١٢ – ١١٣ ؛ راجع أيضاً : إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ١٥١ ؛ وانظر أيضاً : Bury, E. R. E., p. 309.

٢ - ربما يكون هذا الصمت متعمداً من المؤرخين البيزنطيين الموالين للأسرة المقدونية ، وذلك فى إطار سياسة تاريخية عامة تهدف إلى تشويه تاريخ الأسرة العمورية وإخفاء كثير من الانتصارات التى حققها أباطرة هذه الأسرة ، انظر : إسمت غنيم ، كريت ، ص ١٣٨ .

٣ - الطبري تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ – ١٩٥ .

٤ - الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ .

٥ -ابن الأثير ، ج ٦ ، الكامل ، ص ١١٧ .

خلـــدون[1] ، والمقريزى [2]، بذكره . ومع ذلك ، فإن استقراء أحداث هذه الفترة مع الاستئناس بآراء المؤرخين المحدثين يمكن أن يساعد فى استخلاص الأهـداف الحقيقية لهذا الهجوم ، ويقتضى التحليل الموضوعي لهذه الأهداف التمييز بين الهدف الاستراتيجي العام ، وهو الهدف الذى يشكل الإطار العام للصراع بين قوتين ، والأهداف التكتيكية ، أى تلك الأهداف التى يتوصل بها إلـى تنفـيذ الهدف الاستراتيجي العام من خلال عمليات محددة تنفذها القوة المحاربة .

أ – الهدف الاستراتيجي :-

كـان الهـدف الاستراتيجي الكبير الذى تطمح الدولة البيزنطية إلى تحقـيقه فى الربع الثاني من القرن التاسع الميلادي هو القضاء على التهديد الإسـلامي للوجود البيزنطي فى البحر المتوسط وقد برز هذا التهديد بشكل واضح بعد استيلاء المسلمين على كريت فى سنة ٨٢٧ م ثم انطلاق الحملات الإسلامية من شمال أفريقيا لفتح صقلية بدءاً من هذا التاريخ أيضاً . وفضلاً عن الهزائم المتلاحقة التى أنزلها مسلمو كريت بالإمبراطورية البيزنطية منذ فـتحهم للجزيـرة على النحو المبين فيما سبق ، فقد كان الإخفاق هو مصير جمـيع المحـاولات الـتى بذلها البيزنطيون لاستردادها وأصبح المسلمون يشكلون خطراً دائماً يهدد الإمبراطورية البيزنطية[3]. وبالإضافة إلى التهديد القـادم مـن كريـت ، فـتح غزو المسلمين لصقلية جبهة ثانية للقتال أمام الإمبراطورية البيزنطية [4] .

وأدى إلـى تشـتت الجهـود العسكرية للبيزنطيين فى مواجهة المد الإسلامي الذى كان يجتاح البحر المتوسط .

١ - ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ، القاهـرة – بيروت، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، ص ٥٨٧ .

٢ – المقريزي المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ١٨٥٣ ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

٣ – على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٤ .

٤ – إسمت غنيم ، كريت، ص ١٠٥؛ إبراهيم العدوي، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٩٠ .

ب – الأهداف التكتيكية :

وقد تمثلت هذه الأهداف فى :

١ – تدمير مركز إمداد مسلمي كريت بالأسلحة والعتاد والسفن ، حيث نما إلى علم المسولين فى بيزنطة أن هناك شحنة من الأسلحة موجودة بمدينة دمياط فى طريقها إلى كريت[١]، فكان لابد من الحيلولة دون وصول هذه الأسلحة إليها ويؤيد ذلك ما استولى عليه الجند البيزنطيون من مؤن وذخيرة كانت معدة للشحن إلى كريت ذكر الطبري أنها كانت " نحواً من ألف قناة وآلتها " بالإضافة إلى إحراقهم لأشرعة السفن المكدسة فى المخازن البحرية بدمياط [٢]

٢ – التخفيف من حدة ضغط المسلمين على القوات البيزنطية فى صقلية . ورغم أن صاحب هذا الرأى ، المؤرخ الفرنسي هنرى جريجوار ، لم يوضح موقف دمياط من الحرب بين المسلمين والبيزنطيين فى صقلية ومدى تعاونها مع المسلمين[٣]، فإن هذا الرأى يتسق مع سبقت الإشارة إليه من تزامن فتح صقلية مع وصول المسلمين إلى كريت وفتح جبهة قتال أخرى أمام البيزنطيين .

٣ – انتقام القائد البيزنطي ثيوكتيستوس لهزيمته عند محاولته استرداد كريت من المسلمين فى سنة ٨٤٣ م . فقد استغل ثيوكتيستوس مكانته عند الإمبراطورة تيودورا واستحوذ على السلطة طوال فترة وصاية هذه الإمبراطورة على ابنها ميخائيل الثالث ، وقرر معها الانتقام لما أنزله به المسلمون من هزيمة ولكنه لم يستطع توجيه انتقامه إلى كريت فاختار دلتا

---

١ – الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

٢ – الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤.

٣ – H . Gregoire, Etudes Sur Le Neuvieme Siecle, in : Byzantion Revue, Tome VIII, 6-Bruxelles 1933, pp. 515 – 516 .

وادى النيل نظراً للارتباط الذى كان قائماً بين مسلمى كريت وحكام مصر[١]. فهو بهجومه على دمياط كان فى الواقع يوجه ضربة إلى كريت.

٤ – الرد على إغارات على بن يحيي الأرمني على الأراضي البيزنطية من ناحـية الثغور الشامية فى عامى ٨٥١ ، ٨٥٢ م[٢]. ويبدو أن البيزنطيين قد عجزوا عن الرد على هذه الغارات على حدودهم الشرقية ، فوجهوا أسطولهم للـرد فى دمياط باعتبار مصر أهم الولايات العباسية ورغم ما يشوب بعض هـذه الأسباب التكتيكية من ضعف فى الاحتجاج لدى بعض المؤرخين ، فإن كـلاً مـنها ينطوى بلا شك على جانب من الحقيقة ، وهى فى جملتها تشير بوضـوح إلـى أن كريت ظلت تمثل هاجساً أمنياً لدى البيزنطيين يثير فيهم شـعوراً بالمـرارة والأسى والعجز عن دفع هذا الخطر المحدق بهم فى كل وقت وآن .

الهجوم البيزنطى على دمياط

أ – أهمية دمياط :

يكتـنف الـتاريخ المبكر لمدينة دمياط [٣] غموض شديد وتمتزج فيه الحقائق بالأساطير . فلا نعرف متى تأسست ولا من أنشأها ولا ندرى ما إذا كانت فى أول أمرها مرفأ تجارياً صغيراً أو مركزاً حربياً أنشئ على مصب

١- Theophanes Continuatus, Historia, pp 136-137;

وانظـر أيضـاً : إسمت غنيم ، كـريت ص١٣٧،

٢ – الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩١ ، ١٩٦ ؛ وابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٥ .

٣ - كانـت دمياط فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى أقرب إلى البحر من المدينة التى أنشـأها السلطان المملوكى بيبرس فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وكانت تقع على الفرع الشرقى للنيل فى الدلتا على بعد اثنى عشر كيلو متراً من مصبه ، وكيلو متر واحد من بحـيرة المـنزلة التى تقع بين دمياط وبورسعيد، وكان فى شمالها نطاق من الرمال يفصلها عن البحر المتوسط ويكون مجازاً إلى البحر ، انظر:على محمد فهمى، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٨. وعن موقع مدينة دمياط حالياً انظر الخريطة الملحقة فى نهاية هذا البحث .

النـــيل فـــى العصر الفرعوني[1] . وقبل الفتح الإسلامي لمصر ظلت دمياط حوالـــى ســـبعة قرون خاضعة للدولة الرومانية التى لم يكن يهمها من أمر مصـــر غـــير استيراد الغلال ، وفرض الضرائب، وكان من مصلحة الدولة الرومانـية تحصـــين الثغور المصرية وجعلها موانئ صالحة لرسو السفن ، ونقل التجارة فكانت السفن التجارية الحربية تتنقل فيما بين الثغور المصرية ، ومنها دمياط ، وبين ثغور الإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطيـــة بعد ذلك[2].

وبعـــد الفتح العربي ، لم يجد العرب فى دمياط فيما يبدو ما يرغبهم فـــى المهاجرة إليها لأنها كانت مدينة ضيقة الرقعة مزدحمة بالسكان . وكان أهلها يشتغلون خاصة بالملاحة والتجارة والصناعة وهى حرف تركها العرب لأربابهـــا فـــى القرون الأولى من الفتح ، فظلت أكثرية سكانها حتى القرن العاشـــر الميلادي وما بعده من القبط [3] وللأسف فإننا لا نعرف عن دمياط فـــى القـــرن الثامن غير القليل ، وإن كان من المؤكد أن الموانئ المصرية المطلـــة علـــى بحر الروم – ومنها دمياط – ظلت طوال العصر الإسلامي مصدر خطر عظيم لتعرضها لكثير من العدوان من جانب الروم [4]، ثم من

---

١ – نقـــولا يوسف ، تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، الاتحاد القومي بدمياط ،بدون تاريخ ، ص ص ٢١ – ٢٣. والثابـــت أن دمياط كانت تعرف فى العصور الإغريقية والرومانية باسم تامياتس ، وفى العصر القبطي باسم تاميات وذهب بعض العلماء إلى أن معنى الاسم فى اللغة المصرية القديمة (الأرض الشمـــالية) أو (الأرض التى تنبت الكتان).انظر أيضا:جمال الدين الشيال ، مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً ، مطبعة مدرسة دون بوسكو بالإسكندرية ، ١٩٤٩ م ، ص٨ .

٢ – نقولا يوسف ، دمياط منذ أقدم العصور ، ص ٧٢ .

٣ – يســـتدل على ذلك من ضخامة الجزية التى كانت تجبي من الثغور الشمالية لمصر ، وهـــى جزية كانت تفرض على أهل الذمة فى هذه الثغور.انظر :صفاء حافظ أحمد عبد الفـــتاح ، الـــثغور المصريـــــة من الفتـــــح الإسلامي حتى نهـــاية العصر الفاطمي ، رســـالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٩ هـــ / ١٩٧٩ م ، ص ١٣٨.

٤ – صفاء حافظ أحمد عبد الفتاح ، الثغور المصرية ، ص ٢٢٣ .

جانب الصليبيين بعد ذلك [1]، الأمر الذى استلزم وضع الحاميات العسكرية فى الثغور كسياسة دفاعية فى مواجهة الهجمات الخارجية فكانت الحاميات ترابط بكامل عدتها وعتادها فى الربيع والصيف حيث تكثر الغزوات البحرية نظراً لملاءمة الأحوال الجوية لتجول السفن الحربية فى البحار . أما فصل الشتاء ، حيث تسود أحوال جوية غير ملائمة للملاحة ، فقد جعله المسلمون فترة استجمام للجند ، وكانت هذه الفترة يعقبها التجمع فى الفسطاط من جديد للتفتيش على الجند ولم تكن الثغور فى فترة الشتاء تترك خالية ، فكان يرابط بها حاميات قليلة العدد[2].

وتعتبر دمياط من أهم موانئ مصر التجارية وثغورها الحربية[3]، كما كانت من أهم قواعد الأسطول الإسلامي فى مصر لوقوعها على شاطئ بحر الروم عند مصب فرع النيل ، وهو ما ساعد على سهولة إبحار السفن الحربية من داخل البلاد – حيث تقع دور الصناعة فى الفسطاط والقاهرة – إلي بحر الروم عن طريقها [4]وكان ذلك سبباً كافياً لكى تصبح دمياط هدفاً لغارات البيزنطيين فى العصر الأموي ، فضلاً عن قربها من أراضى الدولة البيزنطية . واتسع نشاط قاعدة دمياط فى العصر العباسي ، وبرزت أهميتها بعد استيلاء الأندلسيين على كريت التى أصبحت تابعة لمصر فى التقسيم الإداري ، ووقع عبء إمدادها بالعتاد والسلاح على دمياط مما يسر على مسلمي كريت تهديد الدولة البيزنطية ، ففطن البيزنطيون إلى

---

١ – جمال الدين الشيال ، تاريخ دمياط ، ص ١٧ .

٢ – ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ٩٣ ، ٩٨ – ٩٩ ؛ ابن مماتي، قوانين الدواوين . تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

٣ – صفاء حافظ أحمد عبد الفتاح ، الثغور المصرية ، ص ٣٢ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ دمياط ، ص ٦٦. وانظر أيضاً الخريطة الملحقة بالبحث .

٤ – إبراهيم العدوي ، الأساطيل العربية فى البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٣٨

ما تمثله دمياط بالنسبة لكريت فشنوا عليها غارتهم – موضوع هذا البحث – فى ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م[١].

ب – أحداث الهجوم :

فى صباح التاسع من ذى الحجة سنة ٢٣٨ هـ (٢٢ مايو ٨٥٣ م)، كان المسلمون فى مصر يستعدون للاحتفال بوقفة عيد الأضحى المبارك وقد غشيهم الفرح والابتهاج . وكأنما أراد والى مصر آنذاك ، عنبسة بن اسحق الضبي ،أن يشارك المصريين فرحهم وابتهاجهم بهذه المناسبة العظيمة فقرر الاحتفال أيضاً بختن ولديه فى هذا اليوم المبارك ، وأعد العدة لاحتفال كبير بالفسطاط ، حاضرة البلاد ، واستدعى جميع من كانوا فى حاميات الثغور البحرية بدمياط وتنيس والإسكندرية من جند وجرخية وزراقين [٢]،على غير المألوف فى ذلك الوقت من العام إذ كانت الحاميات المرابطة فى الثغور البحرية لا تترك مواقعها فى فصلي الربيع والصيف ، تحسباً لهجمات الروم[٣]. ولكن عنبسة أراد فيما يبدو أن يظهر للدولة فى كامل زينتها فى هذا اليوم العظيم وأن يقيم عرضاً عسكرياً لم تشهد له البلاد مثيلاً [٤].غير

١–السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ج ١، ص ٣٩ – ٤٠.

٢ – الجرخ نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ، وهى كلمة مأخوذة الفارسية، والجرخي الذى يرمى عن قوسه السهام أو النفط أى الرامى ، انظر: البدراوى زهران ، علم اللغة التاريخي، دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى ، دار المعارف ، ١٩٧٩ ، ص ٧٨ والزراقون هم الرماة بالزراقات ، أى الأنابيب المستخدمة فى الرمى بالنفط ، انظر: المقريزى ، السلو لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ج ١، القسم الثانى، ص ٤٩٨

٣ – انظر ما سبق ص١٦-١٧.

٤ – عن أسباب استدعاء حاميات الثغور إلى الفسطاط ، انظر : الطبري ، تاريخ الرسل، ج ٩ ، ص ١٩٤ ، الذى يذكر أن السبب فى حضور الجند إلى الفسطاط هو " لتحمل لهم فى العيد ..... " وقد بعض المؤرخين هذه العبارة على هذا النحو " ليتجمل بهم " ، انظر : عليه عبد السميع الجنزوري هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العا للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ٧٥ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ دمياط ؛ ص ١١ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٩٠ .

أن الصورة كانت مختلفة فى مياه البحر المتوسط شمالي البلاد . فبعيداً عن مظاهر البهجة والسرور التى كانت تعم العاصمة ، كانت ثلاثمائة سفينة من الشـلنديات [١] البيزنطية تمخر عباب البحر فى هدوء تام وسرية كاملة تحت قـيادة ثلاثة من قادة البحرية البيزنطية ، فيتقدم نحو ثلث هذه القوة البحرية جـنوباً ليجتاز مدخل بحيرة تنيس ، ويظهر فجأة أمام سواحل دمياط العارية مـن رباطها ، بينما يتجه الثلثان الآخران إلى جهة أخرى حددت لهما بعيداً عن السواحل المصرية [٢] .

قادة الأسطول البيزنطي :-

وقبل الخوض فى وصف وقائع هذا الهجوم المباغت ، يجدر بنا أن نتوقف عـند أسـماء قادة هذه الحملة ، ونتعرف عليهم . وقد كان تحديد أسماء هؤلاء القادة من المشكلات التى واجهت المؤرخين ، خاصة وأن الطبري هو المصدر الوحـيد الذى ذكر هذه الأسماء ونقلها عنه المؤرخون اللاحقون فنجد عنده هذه العبارة : " وفى هذه السنة (٢٣٨ هـ) جاءت للروم ثلاثمائة مركب مع عرفا وابن قطونا وأمردناقة [٣]، بينمـا اكتفى اليعقـوبي بذكـر قـائد واحد هو الذى هاجـم دمياط هو(ابن قطوناريس) "[٤]، ونظراً لانعدام المصادر البيزنطية التى كـان يمكـن أن تعرض لهذه المسألة، وبعد المسافة الزمنية بين التاريخ الفعلي للهجـوم(٨٥٣ م) ، وبدايـة الاهتمام بالدراسات البيزنطية فى منتصف القرن السـابع عشـر [٥]، فإنه لم يكن أمام المؤرخين الحديثين إلا الاجتهاد واستنتاج

---

١ - عرف ابن مماتي هذا النوع من السفن بأنه " مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره، وجدافون يجدفـون تحـتهم . " انظـر : ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ ؛ راجع أيضاً : درويش النخيلـي ، السـفن الإسـلامية علـى حـروف المعجم فى : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣ ، ص ٧٩ .

٢ - الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ .

٣ - الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ص ١٩٣ .

٤ - اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص ٤٨٨ .

٥ - Vasiliev, Hist of Byz Empire, Vol. 1, p 4 .، انظـر أيضـا:السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية،ص ٨ .

الأشـــكال المحتملة لأسماء قادة الحملة اعتماداً على الوقائع التاريخية ، والقرائن اللغوية التى توفرت لكل من هؤلاء المؤرخين ،فاتفق المؤرخ الروسي فازيليف والمؤرخ الفرنسي هنرى جريجوار على أن عرفا عند الطبري هو أمير البحر البيزنطـــي نيقيـــتاس أوريفـــاس ، وهو أحد قادة الأسطول البيزنطي ممن قادوا الحمـــلات البحرية على كريت زمن ميخائيل الثانى وثيوفيلوس وكان من رجال البحرية المشهورين فى عهد ميخائيل الثالث[١].

كما اتفق فازيليف وجريجوار على أن ابن قطونا هو سرجيوس نقيتاتيس الـــذى كان وصياً على الإمبراطور ميخائيل الثالث [٢] . واستند فازيليف فى رأيـــه إلى تحريفه للاسم إلى ابن نقطونا حتى يتفق مع رأيه الذى ارتآه [٣] . واتفقا أيضاً على أن أمردناقة هو برداس خال الإمبراطور ميخائيل الثالث[٤]. أمـــا المؤرخ الإنجليزي بيورى فقد ذهب إلى أن ابن قطونة هو فوتينوس أو كنتوميتيس وأن أمردناقة هو مرنيناكيوس [٥] . فأما فوتينوس فقد صادفنا هذا الاسم للقائد الذى أرسله الإمبراطور ميخائيل الثاني حاكماً لجزيرة كريت فى ســـنة ٨٢٨ ، ولكـــنه هـــزم أمام المسلمين وفر فى قارب [٦]وكان قائداً لئيم

١- Theophanes Continuatus, Historia, pp79-81; Zonars,, Epitome Tome III , P.339. وانظر أيضاً : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ ، حاشية ١.Cf.Also: Gregoire, Etudes, pp 516

٢ - فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ ، Gregoire, Etudes 515-526 . وعـــن مجلـــس الوصاية على ميخائيل الثالث ، انظر : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٦٩، حاشـــية ٢ ، حيث يحيل القارئ إلى مقالة له نشرت فى مجلة (Byz) تحت عنوان " رجل عظيم مجهـــول".

٣ - اسمت غنيم ، كريت ،ص١٣٨.

٤ - Gregoire, Etudes, Tome VIII pp. 515-516..

انظر: فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ حاشية ١

٥ - انظر: فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ .

٦- علـــى فهمـــى ، الـــبحرية الاسلامية ،ص٣١٣ ، ويؤيد هذا الرأى أيضا بروكس . Brooks ,Crete, pp 438- 439

الأناضـــول وأبـــا جـــد الإمـــبراطورة زوى والدة قسطنطين السابع[١]. وأما كنتوميتـــيس ، فـــلا يوجد هذا الاسم إلا فى واقعة إغارة مسلمي كريت على الســـاحل الآســـيوي للإمـــبراطورية البيزنطية فى ٨٤١ م ، ونزولهم قرب ايفيســـوس حيـــث تصدى لهم قسطنطين كنتوميتيس قائد ثيم تراقيا العسكري وقضى عليهم [٢]وأما مرنيناكيوس فلا نعرف عنه شيئاً . وأخيراً ، فإن هناك رأياً يقول بأن ابن قطونا هو الخصى داميانوس الذى كان مشرفاً على غرفة النوم الإمبراطورية[٣].

وخلاصة القول أن هناك إجماعاً على ان المقصود بعرفا عند الطبري هو أمـــير الـــبحر البيزنطـــي أوريفاس وأن الخلاف حول امردناقة انحصر فى شخصـــين همـــا برداس (عند فازيليف وجريجوار) ومرنيناكيوس (عند بيورى) أما القائد الثالث والذى يعنينا فى هذا البحث أكثر من غيره لأنه هو الذى قاد الهجوم على دمياط ، فقد كان محل خلاف شديد لم يحسم حتى الآن، فهـــو ســـرجيوس نيقيتاتيس الوصى على الإمبراطور ميخائيل الثالث (عند فازيلـــيف وجـــريجوار) وهـــو فوتينوس الذى أرسل حاكم لكريت وهزمه المســـلمون أمامهـــا وهرب فى قارب (عند بيورى) أو كنتوميتيس قائد ثيم تراقيا العسكري(عند بيورى أيضاً) وهو داميانوس المشرف على غرفة نوم الإمبراطور[٤] .

---

١ - Theophanes Continuatus, Historia, pp79-77, Cedrenus, Historium,P94. .

٢- Brooks ,Crete, pp 438- 439; Brooks, The Struggle, p 131.

٣- انظـــر : نـــاجى محمـــد عـــبد القادر نوار ، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافـــة العباســـية فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ١٩٩، حاشية ١ .

٤ - ناجى محمد عبد القادر نوار ، ميخائيل الثالث ، ص ١٩٩ .

ولا يمكن التقليل من شأن اجتهادات أولئك المؤرخين الكبار إلا أنه من غير الممكن التوصل إلى حسم هذه المسألة إلا إذا أخذت النقاط التالية فى الاعتبار :-

أولاً :- أن الطبري ، وهو المصدر الأساسي بل الوحيد لأسماء قادة الحملة الثلاثة ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، أى إنه كان فى الرابعة عشرة من عمره عند وقوع الهجوم البيزنطي على دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ . ومن غير المعقول أن يكون قد بدأ كتابة مؤلفه الضخم فى هذه السن المبكرة . والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : ما هو المصدر الذى استقى منه الطبرى معلوماته عن الهجوم البيزنطي ، وأسماء القادة الذين تولوا قيادته ؟ للأسف الشديد ، يبدو أن هذا السؤال سيبقى بغير إجابة . فعلى الرغم من أن أسلوب الطبري فى التدوين التاريخي كان يعتمد على التعويل على الروايات والحرص على السند فإنه قد تساهل فى هذا السند ، فى الجزء التاسع من مؤلفه [١] .

ثانياً :- أن فازيليف قد وقع فى خطأ تاريخي عندما ذهب إلى ان مؤرخي العرب نقلوا إلينا أسماء هؤلاء القادة دون نقط [٢]. فمن الثابت تاريخياً أن الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ) هو الذى أمر كتابه بنقط الحروف المتشابهة فى الرسم المختلفة فى الصوت ، وكان القرآن يكتب دون هذه النقط من قبل [٣] ومن المرجح أن اختلاف مكان هذه النقط فى روايات المؤرخين العرب ، أو اختفاءها هو من خطأ النساخ . وأيا كان السبب فى ذلك ، فإن النتيجة كانت واحدة وهى فتح الباب واسعاً أمام كل الاحتمالات عند التعامل مع هذه الأسماء .

ثالثاً :- أن اختلاف حروف الهجاء فى اللغتين اليونانية - وهى اللغة الرسمية للدولة البيزنطية فى ذلك الوقت - والعربية ، واختلاف أساليب رسم هذه الحروف ، وما قد يتبع ذلك من اختلاف فى الأصوات والنطق قد ينتهى بالكلمات إلى صور تبدو غريبة عن أصلها إلى حد بعيد كما أن الأخطاء فى السماع تؤدى إلى تشويه الصيغ [٤] .

---

١ - الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ وما بعدها .

٢ - فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ ، حاشية ١ .

٣ - صبحى الصالح ، مباحث فى علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٩.

٤ - البدراوى زهران ، علم اللغة ، ص ص ٥٢ - ٥٤ .

- رابعـاً :- أن الأسـماء الـتى بصددها البحث فى هذه المسألة قد تعرضت لتغـيرات عنـيفة فـى رسـمها ، وبالتالي فى نطقها عند تعريبها على يد المؤرخين العرب لتلائم الخصائص الصوتية للغة العربية ثم لتغيرات لا تقل عـنفاً عند (أغرقتها) أو(تلتينها) على يد المؤرخين من غير العرب لتلائم الخصائص الصوتية للغات المنحدرة من اللغة اللاتينية .

خامسـاً :- أن المؤرخين الذين اجتهدوا فى إعادة هذه الأسماء المعربة على صـورتها اليونانية كانوا يكتبون بلغات مختلفة كالروسية فى حالة فازيليف ، والفرنسية فى حالة جريجوار ، والإنجليزية فى حالة بيورى . ولا يخلو هذا الاختلاف فى الانتماء اللغوى من مغزى . وأيا كان الأمر فإن قائد الأسطول البيزنطـي الـذى هـاجم دمياط سواء كان نيقيتاتيس الوصى على ميخائيل الثالث، أو فوتينوس الذى أرسل إلى كريت ليكون حاكماً لها ، أو كنتوميتيس قـائد ثـيم تراقـيا العسكري ، أو حتى داميانوس المشرف على غرفة النوم الإمـبراطورية، كـان رجـلاً عظيم الشأن فى قومه كما يظهر من كل هذه الاحـتمالات ، وفـى ذلـك دلـيل لا يخفى على أهمية هذه الحملة فى نظر البيزنطيين وحرصهم على نجاحها فى مهمتها وإلا لما اختاروا لقيادتها قائداً مرموقاً ذا مكانة بغض النظر عن اسمه .

د – المشهد فى مدينة دمياط أثناء الهجوم :-

ونعـود إلى المشهد فى مدينة دمياط . فهاهى السفن البيزنطية تتقدم فى صمت نحو المدينة كالقدر الداهم . وهاهم جند الروم يتأهبون للنزول إلى الشـاطئ مدججيـن بالسلاح ، وقد عقدوا العزم على الفتك بالمدينة ، والثأر لهـزائمهم المتـلاحقة أمام المسلمين فى السنوات السابقة . وينزل الجند إلى الشـاطئ ، وتؤخذ المدينة على حين غرة ، وتفزع إلى جندها فلا تجـد لهم أثـراً ، وتـتطلع إلى حامية تحميها أو رجال يذودون عنها ، فإذا الجميع فى الفسطاط يمرحون ! .

ولا يجد أهل المدينة من النساء والأطفال والرجال ممن لا خبرة لهم بالقـتال وفنون الحرب سبيلاً إلى النجاة إلا بالفرار ، فأما من كانت له سفن

فقـد كتبت له النجاة وفر بها إلى الفسطاط، وأما من لم يكن له من ذلك شيء فقد كـان من الهالكين ، وما كان أكثرهم فى ذلك اليوم ! فغـرق فـى البحـيرة الـتى تفصـل بين المدينة والبحر قوم كثير من نسـاء وصبيان ، رغم أن الماء فى هذه البحيرة كان يصل إلى صدر الرجـل تقريـباً [1] وما خاضها الناس إلا فزعاً من الغزاة وأملاً فى النجاة . فر الـناس إذن ، وخلت المدينة أمام العدو يفعل بها ما يشاء ، ويحكى لنا الطبرى ما فعل الروم بالمدينة فيقول أنهم " .... **أحرقوا** ما وصلوا إليه مـن دورها وأخصاصها ، **واحتملوا** سلاحاً كان فيها أرادوا حمله إلى أبـي حفـص صاحب أقريطش نحواً من ألف قناة وآلتها ، **وقتلوا** من أمكنهم قتله من الرجال ، **وأخذوا** من الأمتعة والقند (حلوى تصنع بغلى سـكر القصـب أو تبخيره) والكتان ما كان عُبّئ ليحمل إلى العراق ، **وسبوا** من المسلمـات والقبطيات نحواً من ستمائة امرأة ... فأوقروا سفنهم من المتاع والأموال والنساء، **وأحـرقوا** خزانة القلوع وهى شرع السفن، **وأحرقوا** مسجد الجامع بدمياط ، **وأحـرقوا** الكنائس ... "[2].

هـ – أهمية رواية الطبرى لأحداث مشهد الهجوم :-

وتسـتمد رواية الطبرى لأحداث ذلك اليوم أهميتها من عوامل متعددة نجملها فيما يلي:

١ – أن روايـة الطـبرى هى الرواية الكاملة الوحيدة لوقائع الهجوم . ويكفـى لكـى نـتأكد من ذلك أن نستعرض تناول المؤرخين اللاحقين لأحداث الهجوم على دمياط ، والذين نقلوا عنه على الأرجح كل ما ورد

---

١ – الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٧ .

٢ – الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

فى أعمالهم عن هذا الهجوم مع الاختصار الشديد للراويـــــة عند كثير منهم[1] .

٢- أن تقـــادم العهـــد بـــالحدث الذى يؤرخ له المؤرخ قد يفقد الحدث بريقه الأول، بـــل والأخطـــر من ذلك إنه قد يجرده من أهم عناصره . وليس من الصـــعب علـــى المتتبع لقصة الهجوم البيزنطي على دمياط عند المؤرخين العرب بين أوائل القرن الرابع الهجري ومنتصف القرن العاشر أن يلاحظ أن

---

١ - الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ ؛ ابن المقفع ، بطـــاركة الإسكندريـــة ، ص ٨ ؛ ابن الأثير ، الكامـــل ، ص ١١٧ ؛ الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، دول الإسلام ، عنى بطبعه ونشـــره عـــبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، إدارة أحياء التراث الإسلامي ، دولة قطر ، ١٩٨٨م ، ص ١٤٤ ؛ أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حـــوادث الـــزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، منشورات محمد على بيضون ، دار الكتب العلمـــية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، الجزء الثانى ، ١٤١٧ هـــ / ١٩٩٧ م ، ص ٩١ ؛ ابـــن خلـــدون ، العبر ، ص ٥٨٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ ؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامـــة للكتاب ، القاهرة ، تحقيق إبراهيم على طرخان ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفـــاء ، ص ٥٥٤ ؛ محمـــد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهـــــور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامـــة للكتاب ، القاهرة ، ٤٠٢ هـــ ١٩٨٢ م ،الجزء الأول ، القســـم الأول، ص ١٥٣ . هذا عـــن المؤرخين اللاحقين على الطبري أما قبـــل الطبري (ت ٣١٠ هـــ) فإننا لا نعثر على أى رواية للهجـــوم على دمياط باستثناء رواية اليعقوبي ، انظر اليعقوبـــي ، تاريخ اليعقوبي، ص ٤٨٨ . ورغم أن اليعقوبي توفى قبل وفاة الطبري بنحو خمسة وعشرين عاماً أى إنه كان أقرب زمنيـــاً إلى الأحداث ، فإن أحداً من المؤرخين لم يأخذ بروايته ، فضـــلاً عن أنها جاءت أكثر اختصاراً من رواية الطبري ، وتضمنت احصائيات انفرد بها سواء من حيث عدد السفن المهاجمـــة ، فذكر أنها كانت خمسة وثمانين مركباً ، أو من حيث عدد السبايا من أهل المدينة حيث قال أنهم " سبوا من المسلمات ألفاً وثمانمائة وعشرين امرأة ، من نساء القبط ألـــف امـــرأة ، ومـــن اليهود مائة امرأة ، وهى أعـــداد نرى أنها مبالغ فيها خاصة وأن التركيبة السكانية للمدينة كان يغلب عليها الأقباط حتى القرن العاشر الميلادي وما بعده كما سبقت الإشارة إلى ذلك. انظر ما سبق ص ١٦.

الصورة المؤثرة التى رسمها الطبرى فى النصف الثاني من القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجري بمفردات صارخة تمثل كل منها جريمة حرب بمصطلحات العصر الحديث كما يظهر من النص المبين فى الفقرة السابقة [1] . قد تحولت عند ابن إياس فى القرن العاشر الهجرى إلى صورة باهتة تصور الروم وقد نهبوا المدينة وقتلوا جماعة من أهلها وسبوا النساء[2]. وباستثناء ابن الأثير الذى يقدم رواية تقترب كثيراً فى تفاصيلها ومفرداتها من رواية الطبرى [3] ، فإن مؤرخي القرن الرابع الهجرى (الكندى ت. ٣٥٠ هـ ، وساويرس بن المقفع ت. ٣٧٦ هـ / ٣٧٧ هـ) ، والقرن الثامن الهجرى (الذهبي ت . ٧٤٨ هـ، واليافعي ت . ٧٦٨ هـ) ، والقرن التاسع الهجرى (ابن خلدون ت. ٨٠٨ هـ ، و المقريزي ت. ٨٤٥ هـ ، وابن تغرى بردى ت. ٨٧٤ هـ) ، والقرن العاشر الهجرى(السيوطي ت. ٩١١ هـ ، وابن إياس ت. ٩٣٠ هـ) يقدمون رواية لما فعل الجنود البيزنطيون بالمدينة تكاد تكون رواية نمطية تراوحت مفرداتها بين " نهبوا : و "أحرقوا " و " سبوا " و "قتلوا" دون أن يعتنوا بترتيب سرد هذه الأفعال على النحو الذى نجده عند الطبري .

والأخطر من ذلك أن كل هؤلاء المؤرخين الأجلاء أغفلوا سهواً أو اختصاراً ، واقعتين من أهم وقائع الهجوم بل هما من أهم وقائعه على الإطلاق ، وهما الاستيلاء على الأسلحة التى كانت معدة لإرسالها إلى كريت ، وإحراق خزانة القلوع . ولاشك ، أن هذا السهو أو الاختصار يفرغ الواقعة من مضمونها ويجرد الهجوم البيزنطي من أهم أهدافه التكتيكية ، الأمر الذى يزيد من أهمية رواية الطبري باعتبارها محاولة أمينة لرصد الواقع التاريخي لواحد من أهم الثغور البحرية للدولة الإسلامية فى القرن الثالث الهجري .

---

١ – انظر ص ص ٢١ – ٢٢ من هذا البحث .

٢ – ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٥٣ .

٣ – ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٧ .

٣ – إن تحلـيل رواية الطبري لوقائع الهجوم فى ضوء أهدافه الاستراتيجية والتكتيكيـة [١] يعزز من قيمة هذه الرواية ويزيد من مصداقيتها . فـرغم أن الطـبرى لا يذكر شيئاً عن وجهة الأسطولين الآخرين اللذين كانا تحت إمرة عرفا (أوريفاس) [٢] وأمردناقة (برداس أو مرنيناكيوس)[٣] أو مصيرهما ، فـإن إشـارته إلى عدد السفن وتحديد عددها بثلاثمائة مركب ثم تقسيمها – تلمـيحاً – إلـى ثلاث مجموعات أو أساطيل على رأس كل منها واحد من " رؤساء " البحر ، ثم ذكر أسماء هؤلاء الرؤساء تفصيلاً ، كل ذلك إنما يشير إشـارة واضـحة إلى وجود هدف استراتيجي كبير تحركت فى إطاره هذه الأساطيل الثلاثة ، وأهداف تكتيكية جرى تحقيقها داخل دمياط .

أما الهدف الاستراتيجي الكبير والذى تمثل فى القضاء على التهديد الإسـلامي للوجـود البيزنطـي فـى الـبحر المتوسط ، فربما اقتضى من البيزنطيين توجيه ثلاثة أساطيل ينفذ كل منها جزءاً من خطة عامة لتحقيق هـذا الهـدف ، فيتجه الأسطول الأول إلى كريت فى محاولة بيزنطية جديدة لاسـترادها باعتـبارها المصـدر المباشـر لـتهديد السواحل والممتلكات البيزنطـيـة[٤]. ويقوم الأسطول الثاني تحت قيادة من أسماه الطبري (ابن قطونا) [٥] بمهاجمة دمياط لتحقيق هدفين تكتيكيين هما قطع خطوط الإمداد بالسـلاح عـن مسلمي كريت بالاستيلاء على السلاح الذى كان قد أعد فى دمياط لإرساله إليهم ، ومعاقبة أو إرهاب هذه المدينة التى كانت قد أصبحت بمثابة دار صناعة لمسلمي كريت . وربما كان القول بأن الأسطول الثاني هو الـذى هاجم دميـاط [٦] راجعاً إلى ورود اسم ابن قطونا كثاني اسم من بين

---

١ – انظر ما سبق ، ص ١٤ – ١٥ من هذا البحث .

٢ – انظر ص ٢٨ من هذا البحث .

٣ – انظر ما سبق ، ص ٢٨ – ٢٩ من هذا البحث .

٤ –يؤيد فازيليف هذا الرأى . انظر : فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٩١ ؛ على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٨ .

٥ -انظر ما سبق ، ص ٢٨ – ٢٩ من هذا البحث .

٦ - فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٩ .

أسماء قادة الأساطيل الثلاثة عند الطبري [1] أما الأسطول الثالث فمن المرجح أن يكون قد اتجه إلى صقلية[2] بهدف التخفيف من ضغط المسلمين على القوات البيزنطية بها ، خاصة وأن القوات الإسلامية كانت قد حققت انتصارات متتالية واستولت على عدد كبير من المدن والمواقع فى صقلية منذ نزول أسد بن الفرات الجزيرة فى سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ . ومع تولى عباس بن الفضل بن جعفر (٨٥١ – ٨٦١ م) ، قيادة القوات الإسلامية فى صقلية خلفاً لأبيه الفضل بن جعفر (٨٤٥ – ٨٥١ م) زادت وتيرة الفتوحات الإسلامية فى صقلية [3].

وأما الأهداف التكتيكية للهجوم على دمياط والتى انفرد بذكرها الطبري ، ولم يشر إليها بعده إلا ابن الأثير كما سبق القول فهى الاستيلاء على الأسلحة المعدة لإرسالها إلى مسلمي كريت وتدمير مخزن القلوع بالمدينة ، ويمكن إضافة سبب آخر وهو إرهاب المدينة وترويع أهلها على سبيل التأديب أو العقاب وردعها عن مواصلة دعمها للمسلمين فى كريت .

ومن المؤكد أن ما جرى فى دمياط فى ذلك اليوم لم يكن مقطوع الصلة بما كان يجرى فى البحر المتوسط ، ولم يتم بمعزل عن الأهداف الاستراتيجية للدولة البيزنطية . كما إنه لا ينبغي تجاهل ما يمكن أن تفعله قوة من الجند تغير على موقع لا يجد من يدفع عنه الأذى ، فالجند هم الجند فى كل زمان ومكان . والمهمة الوحيدة التى يكلف بها الجندى فى الحرب أو

---

١ - الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٣ .

٢ – يذكر بيورى أن الأسطولين الآخرين قد ذهبا إلى صقلية عندما وجدا أن قوات زميلهم (المتجهة إلى دمياط) كافية لتنفيذ خططه . انظر : Bury, E. R. E. p. 292 ؛ انظر أيضاً: على فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٨ ، ولكننا نستبعد أن تتجه مائتا سفينة إلى صقلية وحدها أو إلى كريت وحدها لمجرد أنها لا تجد ما تفعله فى دمياط . فليس من المقبول منطقياً أن تخرج ثلاثمائة سفينة محملة بالأسلحة والجند تحت قيادة ثلاثة من كبار القادة البحريين لمهاجمة مدينة صغيرة عارية من دفاعاتها ثم تكتشف أن لا حاجة إليها فتبحر مائتان منها إلى جهات أخرى دون خطة استراتيجية واضحة .

٣ - انظر ما سبق ، ص ٢٠ من هذا البحث .

فـــى الإغارة هى تدمير العدو ، ولم يخرج الجنود البيزنطيون الذين هاجموا دمياط على هذه القاعدة ، فأحرقوا البيوت والجامع الكبير والكنائس ، وقتلوا مـــن أمكـــنهم قتله ، واسروا ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم ؛ حتى أثقلوا ســـفنهم بالغـــنائم والسبايا . أما استيلاؤهم على الأسلحة الموجهة إلى كريت وإحراقهم للخزانة المكدسة بالقلوع فلا يمكن القول أن ذلك تم بنفس الطريقة العشـــوائية التى اعتدوا بها على أهل المدينة وممتلكاتهم ، بل كان ذلك جزءاً من تدبير متفق عليه أو أوامر محددة صدرت إليهم من قادتهم .

الدفاع عن مدينة دمياط عام ٨٥٣ م ، فى المصادر العربية

على هذا النحو إذن سارت الأحداث فى دمياط فهل يفهم من ذلك أنه لـــم يكـــن هناك أى نوع من المقاومة ؟ وأن الأمر اقتصر على هجوم من جانـــب الجنود ، وفرار مذعور من جانب الأهالي أعقبه إحراق وقتل ونهب وسبي بلا أى رادع ؟

الواقـــع أن تتـــبع تناول هذه المسألة فى أعمال المؤرخين ينتهى إلى تقســـيم هـــؤلاء المؤرخين إلى أربع مجموعات لكل منها موقفها الخاص من المســـألة . فالمجموعة الأولى وعلى رأسها مؤرخنا الطبري وحجتنا فى هذا البحث ، وتشمل من بعده ابن الأثير فى القرن السابع الهجري ، وابن تغرى بردى فى القرن التاسع ، تؤكد لنا بشكل صريح لا لبس فيه حدوث المقاومة . فـــيحكى الطبري وابن الأثير أن ابن الأكشف كان محبوساً فى سجن دمياط بناء على أمر عنبسة والى مصر فكسر قيده وخرج لمقاتلة الروم وأعانه قوم فقتل من الروم جماعة [1] .

وعلـــى الرغم من الغموض الذى يحيط بشخصية ابن الأكشف هذا ، فيستشف من الطريقة التى يتحدث بها الطبري وابن الأثير عن هذا الرجل أنه كـــان شخصية معروفة وربما كان يشغل قبل حبسه بناء على أوامر عنبسة وظيفة مرموقة . فحين يقولا " .

وذكـــر أن ابـــن الأكشف كان محبوساً ..... " دون أى إشارة إلى هويته أو وظيفته فإنه يفترض سلفاً أن القارئ يعرف هذا الرجل تماماً وأنه فى

---

١ - الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

غـير حاجـة إلى التعريف بـــه[1]. ومما يؤيد هذا الافتراض ما أضافه ابن تغـرى بردى عندما ذكر أن عنبسة غضب على مقدم من أهل دمياط يقال له أبو جعفر بن الأكشف ..... فمضى إليه بعض أعوانه وكسروا قيده .....»[2]. وأيـا كـان الأمر، فإن المستفاد من روايات الطبري وابن الأثير وابن تغرى بردى أن هذا الرجل كان يشغل وظيفة عسكرية متقدمة ، وأنه كان له أعوان ، والأعوان لا يكونون لشخص نكرة لا وزن له.

وفـى غيبه الحامية الرسمية للمدينة ، أى الجند المكلفون بحراستها ، وإزاء قسـوة الغزاة ، كان لابد من ظهور المقاومة الشعبية فظهرت ، وكان لابد من قائد يوجه هذه المقاومة فأخرج الناس هذا الرجـل الذى يستشف من رتبته أن له خبرة عسكرية واسعة ، وقدرة على مقاتلة الأعداء ، وإلا لما قتل مـن الـروم جماعـة على حد تعبير الطبري وابن الأثير ، ولما اجتمع إليه جماعـة من أهل البلد فحارب بهم الروم حتى هزمهم وأخرجهم من دمياط ، ونزحوا عنها مهزومين فى رواية ابن تغرى بردى[3].

أما المجموعة الثانية من المؤرخين وتشمل الكندى فى القرن الرابع ، والمقريزى وابن تغرى بردى فى القرن التاسع ، وابن إياس فى القرن العاشر فتصور الموقف الرسمي لعنبسة بن اسحق والى مصر والمسئول عنها فى ذلك الوقـت. ويـتلخص هذا الموقف فى أن عنبسة نفر إلى الروم فور علمه بما فعلـوا ونفـر كثير من الناس معه بل خرج عسكر الفسطاط قاطبة ، ولكن

---

١ - الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص ١١٧ . ولم يكن الطبرى فقط الذى أشار إلى أهمية رتبة (الأكشف) العسكرية ، حيث يذكر أن المقدم رتـبة عسـكرية كانـت معروفة فى العصر العباسى ؛ فقد أيد المقريزى ذلك أيضاً ، ثم أضـاف بـأن مقدم الأسطول فى العصر الفاطمي كان يشترط أن يكون من أعيان أمراء الدولـة ؛ انظر : المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الديـن الشيال ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، الطبعة الثانية ، الجزء الثالث ، ص ٣١١ .

٢ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤

٣ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤ .

عنبسة لم يدرك الروم إذ جاء دمياط بعد أن خرجوا منها إلى تنيس [1]إذن ، فقد نفر عنبسة إلى الروم ولكنه لم يدركهم وعلى حين يذكر الكندى والمقريزى أنه لم يتبعهم (بعد خروجهم من دمياط إلى تنيس) ، ويذكر ابن تغرى بردى إنه لم يدركهم ،انفرد ابن إياس برواية سنتناولها فى موضع لاحق عند الحديث عن المجموعة الثالثة من المؤرخين الذين تناولوا أحداث الهجوم . أما عدم مواصلة عنبسة السير من دمياط إلى تنيس لمطاردة الروم، فقد اتخذ ذريعة للطعن فى الرجل واتهامه بالتقاعس من قبل رجل يدعى يحيي بن الفضل لا نعرف عنه شيئاً إلا أنه قال فى أبيات وجهها إلى الخليفة العباسي جعفر المتوكل وأوردها الكندي والمقريزى:

أترضى بأن يوطأ حريمك عنوة وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثب بتنيس رأى العين منه وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة بمصر وإن الدين قد كاد يذهب[2]

وزاد المقريزى قبل البيت الأخير بيتاً آخر هو :

فما رام من دمياط شبراً ولا درى من العجز ما يأتي وما يتجنب[3]

والواقع أن اتهام عنبسة بن اسحاق بالتقاعس عن ملاحقة الروم يحتاج إلى وقفة لاستجلاء الحقيقة والتأكد فيها من صدق رواية هذا الشاعر . ويلاحظ أن كلاً من الكندي والمقريزي لم يطعنا فى عنبسة كما فعل ابن الفضل بل ذكرا – أو ذكر الكندي ونقل عنه المقريزي – فى حياد المؤرخين الأمناء أن المسلمين " لم يدركوهم " (أى الروم) وأن عنبسة " لم يتبعهم "، بل إن إيراد أبيات ابن الفضل الشعرية يقوم فى حد ذاته دليلاً على أمانة الرواية، فقد أورد المؤرخان الحدث وأورد تعليق الشاعر على الحدث دون أن يتدخلا بتأييد التهمة (التقاعس) أو إنكارها .

---

١ – الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ ، المقريزي ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٠١ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص١٥٣ .

٢ – الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ .

٣ – المقريزي ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

وقبل التسليم بصحة هذه التهمة فى حق عنبسة ننفيها عنه ، يتعين علينا أن نتوقف عند جملة أمور أحاطت بموقف عنبسة ولم يسبق أن طرحت – بقدر ما نعرف – على بساط البحث .

أولاً :- كان عنبسة حاكماً عادلاً ورعاً أظهر من الرفق والعدل بالرعية والإحسان إليهم ما لم يسمع بمثله فى زمانه . وكان يتوجه إلى المسجد الجامع ماشياً ، وكان ينادى فى شهر رمضان بالسحور[1] فلا يستقيم مع هذه السمات فى شخصية الرجل أن يتهم بالنكوث والقعود عن نصرة المسلمين.

ثانياً :- إنه نفر من الفسطاط فور علمه بالهجوم وأسرع إلى دمياط لملاقاة الروم . فهو قد تصرف كقائد مسئول يدرك تماماً أن أول واجبات منصبه الذود عن حياض الإسلام، وصد أى عدوان يقع على الأراضي التى تدخل فى نطاق مسئوليته . ولذلك دلالته فى دحض تهمة التقاعس عنه فإذا كان يريد التقاعس فلم ينادى بالنفير العام ويسرع إلى دمياط على بعدها عن الفسطاط مسيرة أربعة أيام كما ذكر الطبري؟[2].

ولا شك فى أن عنبسة ، بداية ، قد ارتكب خطأ تكتيكياً خطيراً باستدعائه كل من كان بحامية دمياط إلى الفسطاط للمشاركة فى الاحتفال بعيد الأضحى وختان ولديه كما تقدم[3] أما عدم ملاحقته للروم – على حد رواية الكندي والمقريزى – فربما كان له ما يبرره . فالطبري يحكى لنا أن المسافة بين دمياط والفسطاط كانت مسيرة أربعة أيام وإن كان ذلك يرد فى سياق الحديث عن هروب من استطاع بالسفن إلى الفسطاط ، الأمر الذى يوحى بأن الطبرى قصد بذلك مسير السفن فى البحر ، بينما نعرف من الكندي أن عنبسة نفر " فى جيشه "[4] ، ولا شك أن زحف الجيوش البرية يختلف عن مسير السفن فى البحر (أو فى النيل فى حالتنا هذه) ، وإذا كان

١- الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ص ٢٩٤.

٢- الطبري ، تاريخ الرسل ج ٩ ، ص ١٩٤ .

٣ – انظر ما سبق ص ٢٦ – ٢٧ من هذا البحث .

٤ – الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧.

الروم قد أمضوا فى دمياط و تنيس يومين وليلتين كما ذكـــر اليعقوبي[١] ، أو ثلاثة أيام كما ورد فى تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع [٢] ، فقد كان من الصعب إن لم يكن من المستحيل على عنبسة أن يدرك الروم فى دمياط حتى لو علم بالهجوم فور وقوعه غير أنه من الواضح أن الخبر وصله بسرعة[٣]، وأنه أيضاً تحرك على الفور ،فهو لم يقصر ولم يتقاعس فى الاستجابة ولكن عاملي الزمان والمسافة كانا فى صف البيزنطيين.

وقد يكون ما منع عنبسة عن مطاردة البيزنطيين راجعاً إلى تأكده من انهـــم ســـيرحلون بعـــد أن حققوا أهدافهم . فهم لم يأتوا إلى دمياط بغرض احتلالها ولو أنهم أرادوا ذلك لأعدوا للأمر عدته وما أسرعوا بمغادرة دمياط ســـواء تحت ضغط المقاومة التى تزعمها ابن الأكشف ، أو لمجرد الإغارة على تنيس وتخريبها . وبالنظر إلى أنهم قد حققوا أهدافهم فعلاً واتجهوا إلى البحر عائدين إلى بلادهم ،فإن قعود عنبسة عن مطاردتهم كان فيه حقن لدماء المســـلمين ومحافظة على أرواحهم . يضاف إلى ذلك أن عنبسة كان يعرف بلا شك الطبيعة الجغرافية لتنيس ، ويعـــرف أن سفن البيزنطيين ستوحل فى البحيرة إن حاولت دخولها فترجع عنها ، وهو ما حدث إذ لم يجد البيزنطيون مـــا يفعلونه فى تنيس فانتقلوا إلى أشتوم تنيس ، وهو مرسى بينه وبين تنيس أربعـــة فراسخ ، كما يروى الطبرى ، فخربوه وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعـــرادات وأخذوا بابيه الحديد فحملوهما وعادوا إلى بلادهم [٤] . ونخلص من ذلك إلى ان عنبسة لم يقعد عن مطاردة البيزنطيين ضعفاً منه – وقد نفر معه كثير من الناس – أو تقاعســـاً عن واجبه ، وهو الحريص على مصالح المسلمين ، وإنما إيماناً منه بعدم جدوى ملاحقة البيزنطيين .

---

١ – اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص ٤٨٨ . وانظر أيضاً الخريطة المرفقة بآخر هذا البحث .

٢ – ابن المقفع ، بطاركة الإسكندرية ، ج ٢ ، ص ٨ .

٣ - ذكـــر ابـــن إيـــاس أن الخبر جاء عنبسة يوم عيد النحر . انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٥٣.

٤ – الطبري ، تاريخ الرسل ، ص ١٩٤ – ١٩٥ .

ومن الأمور الأخرى التي ينبغى وضعها فى الاعتبار عند استعراض موقف عنبسة أن الهجوم عليه ، والطعن فى همته جاء من رجل غير راض عـــنه ، أو ناقم عليه لأسباب لم يفصح عنها الكندي والمقريزى اللذان انفردا بإيراد أبيات يحي بن الفضل . فقد سبق أن هجا هذا الشاعر عنبسة فى أبيات اتهمه فيها بإذ من الخوارج . وهى أبيات انفـــرد بذكرها الكندي قال فيها (يخاطب المتوكل) :-

من فتـــى يبلغ الإمـــام كتابـــا	عربيـــاً ويقتضـــيه الجـــوابا
بئـــس والله ما صنعت إلينـــا	حيـــن وليـــتنا أميـــراً مصابا
خارجيـــاً يدين بالســـيف فينـــا	ويـــرى قتلنا جميـــعا صـــوابا
مر يمشى إلـــى الصـــلاة نهاراً	وينادى الســـحور ظل وخابـــا [1]

فهـــو هـــنا يشكو إلى الخليفة من هذا الوالى المصاب (فى دينه) ، ويذكـــره بـــأن هـــذا هو أسوأ ما فعله بهم إذ جعل أمرهم فى يد هذا الرجل الخارجـــي الذى يريد قتل الناس أجمعين ، ويسخر ممن مشيه إلى الصلاة فى غير موكب وبغير مطية ومن إيقاظه الناس للسحور . والواقع لايمكن تفسير دوافـــع هـــذا الشاعر لمهاجمة عنبسة والسخرية منه والطعن حتى فى تدينه وتواضـــعه ، ولا نعـــرف شخصـــاً آخـــر هاجم عنبسة بهذا العنف باستثناء ســـاويرس بـــن المقفـــع الذى هاجمه بشدة لتضييقه على الأقباط ومنعه لدق الـــناقوس للصلاة وصنع النبيذ ، وهى تهم ذات طابع ديني يمكن القول بأنها كانت تمثل سياسة المتوكل لا سياسة عنبسة[2]. ومن هذا المنطلق يمكن القول بـــأن هجاء يحي بن الفضل لعنبسة يوحى بموقف شخصى منه وبأن روايته للأحداث غير أمينة فلا يمكن إذن الأخذ بها على علاتها .

أما المجموعة الثالثة من المؤرخين الذين وصفوا وقائع هذا الهجوم ، وهـــى ليســـت مجموعة بالمعنى الحرفي للكلمة ، حيث لا تشمل إلا مؤرخاً واحـــداً من القرن العاشر الهجري هو محمد بن أحمد بن إياس الذى يطالعنا بـــرواية مؤثـــرة انفرد بها ، حيث ذكر أن عسكر الفسطاط قاطبة قد خرجوا

---

١ - الكندي ، ولاة مصر ، ص ١٥٧ .

٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١١٩ .

ويتوجهوا إلى دميـــــــاط ، وحاربوا البيزنطيين وانتصروا عليهم وأسروا مـنهم جماعـةً وهرب الباقون إلى بلادهـم . ويريد لنا ابن إياس أن نعيش أجـواء الانتصار هذه ، فيذكر أن الأمير عنبسة عاد إلى الفسطاط منصوراً وأمامـه الأسرى من البيزنطيين " وكان يوماً مشهوداً "[1]. فهل كان التاريخ عند ابن إياس مجرد حافز لإثارة الهمم من قبيل الفخر والزهو بالنصر على الأعداء ؟ من الواضح – قياساً على ما سبق وعلى ما هو ثابت من أمر هذه الغـارة البيزنطـية – أن هذه الرواية تنطوي على قدر كبير من المبالغة فلا جند عنبسة حاربوا البيزنطيين ولا هم انتصروا عليهم . كما أننا لا نسمع من أى مصدر أو مرجع عن أسرى بيزنطيين يساقون إلى الفسطاط أمام عنبسة . والحقيقة أن رواية ابن إياس هذه تعكس روحاً وطنية متأججة فى صدر هذا المـؤرخ أكثر مما تعكس حقائق التاريخ . وإذا أخذنا بما ذكره محقق الكتاب فـى مقدمته من إنه كان يتوخى الأمانة العلمية فيما ينقله من أخبار وحوادث عـن المؤرخين الذين سبقوه [2] فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نتهم المصدر الذى اسـتقى منه ابن إياس روايته ، أو أن نرجع ما شاب هذه الرواية من مبالغة واضحة إلى تقادم العهد بالحدث .

وأخـيراً ، فلـو سلمنا بأن التبعة فى هذه الرواية المغلوطة تقع على المصـدر الذى نقل عنه ابن إياس فإن ما ينضح به حديث هذا المصدر من تفاخـر وزهـو بالانتصار المزعوم لابد قد صادف هوى فى نفس ابن إياس الـذى يتغـنى فى مقدمة كتابه بمحاسن مصر وفضائلها وما قيل فى وصف نـيلها ومفـترجاتها وأوان ربيعها ، ويفتخر بما ورد فيها من القرآن الكريم والحديـث الشـريف ، ومن دخلها من الأنبياء و الصحابة والتابعين[3]،الأمر الـذى شـجعه علـى الأخـذ بهذه الرواية و نقلها كما هى لما تضمنته من الانتصار على الأعداء الذين أغاروا عليها .

---

١ - ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٥٣ .

٢ – ومـن المعـروف أن ابن أياس قد ولد بالقاهرة فى عام ٨٥٢ هـ ، وتوفى بها فى ٩٣٠ هـ . أنظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ٨ .

٣ – انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، المرجع السابق ص٣-٦٣.

أمـــا المجموعة الرابعة وتضم عدداً من أساطين المؤرخين هم على ســـبيـــــل الحصر وبترتيب قربهم من الحدث : اليعقوبي، وساويرس ابن المقفـــع ،والذهبي واليافعي ،وابن خلدون ، والسيوطي . واللافت للنظر أن روايـــة الحدث عند كل هؤلاء قد خلت تماماً من أى إشارة إلى رد فعل على المستويين الشعبي والرسمي إزاء الهجوم البيزنطي ، بل لم تزد عن سطر أو سطـــرين (ساويرس ، والذهبي ، واليافعي ، والسيوطي) أو أربعة أسطـــر علـــى الأكـــثر (اليعقوبـــي ، وابن خلدون) . وإذا جاز أن نفترض أن هذا التجاهل لذلك الجانب من قصة الهجوم يرجع إلى تقادم العهد بالحدث – كما سبق الإشارة إلى ذلك [1]– بالنسبـــــــة للذهبي والسيوطي واليافعي . وإلى الهـــوى الشخصي وغلبة الشعور الديني بالنسبة لساويرس بن المقفـــع الذى جاء حديثه عن الغزو فى معرض الذم فى الوالي عنبسة لأسباب دينية ، فإن مـــن المستغرب أن يتجاهل اليعقوبي وهو أقرب المؤرخين عهداً بالهجوم – حيث ت. سنة ٢٨٤ هـــ ، الرد الشعبي والرسمي على هذا الهجوم ولا يوجد فى المصادر والمراجع ما يبرر هذا السكوت من جانب اليعقوبي .

ومهمـــا يكـــن الأمـــر ، فإنه ومن خلال متابعة روايات المؤرخين العـــرب لمظاهـــر مقاومة الهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م ، يمكن القول بأنه من المؤكد إنه كانت هناك مقاومة فعلية بدأت بمقاتلة ابن الأكشف للبيزنطيين ثم تطورت بقدوم عنبسة من الفسطاط بجيشه لملاقاة المعتدين على النحو الذى تم عرضه سلفاً .

نتائج الهجوم البيزنطي على دمياط عام ٨٥٣ م .

أمـــا عـــن نتائج هذا الهجوم ، فقد وصف المؤرخ استروجورسكي حملـــة دمياط بأنها كانت مجرد مظاهرة عسكرية لم تحقق الأهداف المرجوة منها ،غير أنها وجهت انتباه المصريين لضرورة بناء أسطول قوى قادر على مواجهـــة مـــثل هذه الهجمات المفاجئة ، وكان هذا الأسطول الجديد هو نواة

---

١ – انظر ما سبق ، ص ٣٤ من هذا البحث .

القوة البحرية المصرية الهائلة زمن الخلفاء الفاطميين[١]. وللإنصاف ، فإن الـرجل قـد جمـع فى هذه العبارة الموجزة أهم نتيجتين تمخض عنهما هذا الهجوم ، وهما إخفاق البيزنطيين فى القضاء على التهديد الإسلامي للسواحل والممتلكات البيزنطية فى البحر المتوسط ، وتنبيه المسلمين إلى ضرورة بناء أسطول قوى قادر على مواجهة الهجمات المفاجئة .

أما عن النتيجة الأولى وهى إخفاق البيزنطيين فى القضاء على تهديد المسـلمين لأراضيهم سواء بالإغارة عليها انطلاقاً من كريت أو التوسع فى فـتوحاتهم فى جزيرة صقلية ، فليس أدل عليه من استمرار غارات مسلمي كريت على السواحل والجزر البيزنطية من جهة ، واطراد الزحف الإسلامي لاستكمال فتح جزيرة صقلية من جهة أخرى .

ففى سنة ٨٦٠ م ، انتهز مسلمو كريت فرصة الهجوم الروسى على القسطنطينيـــة ، فأغاروا على جزر السيكلاديز ، كما هاجموا شواطئ آسيا الصـغرى وأخذوا الكثير من الغنائم والأسـرى[٢]. وفى سنة ٨٦٢ أغاروا علـى جزيرتى لسبوس وميتيلين واستـولوا عليهما ، كما أغـــاروا على دير جبل آتوس [٣]. وفى سنة ٨٦٦ م ، أغاروا على جزيرة نيون واتخـذوا مـنها قاعـــدة لهم [٤]. وفى سنة ٨٦٧ م ، شن المسلمون غارة كبيرة على السـاحل الشـرقي للبحر الإدرياتيكي اشتركت فيها مع أسطول كريت بعض القطع الحربية من أساطيل قرطاجنة وصقلية وجنوب إيطاليا [٥] .

واستمرت الغارات البحرية التى وجهتها الأساطيل الإسلامية إلى الأراضي البيزنطية سواء من كريت وحدها أو بالتعاون مع أسطولها طوال عصر بازيل

---

١ - Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Rutgers University Press, 1957, p 97

٢ - Theophanes Continuatus, Historia, p 196 .

٣ - Theophanes Continuatus, Historia, p 197

وانظر أيضاً : فازيليف ، العرب والـروم ، ص- ٢٢٦

٤ - Theophanes Continuatus, Historia, p 197

٥ - Symeon Magister, Chronographia, p.694; Constantine porphyrogenetus, De Administrando, p. 130; Theophanes Continuatus, Historia, p 289

الأول (٨٦٦ – ٨٨٦ م)، وإن كان البيزنطيون قد حققوا انتصارات مهمة فى هـذه العمليات بفضل التقدم الكبير الذى شهدته البحرية البيزنطيـة فى تلك الفترة [١].

وجاءت أقوى ضربة وجهها مسلمو كريت إلى البيزنطيين فى سنة ٩٠٤ م / ٢٩١ هـ، عندما أسهم أسطولهم مع الأسطول السوري والأسطول المصري تحت قيادة ليو الطرابلسي فى الهجوم الساحق على سالونيك ، والذى حقق نجاحاً تجاوز كل التوقعات وبلغ عدد الأسرى من سكان هذه المدينة نحو ٢٢ ألف شخص [٢] . وفى سنة ٩١٠ م ، منى الأسطول الضخم الذى أرسله الإمبراطور ليو السادس لاسترداد كريت تحت قيادة هيميريوس بالهزيمة ، بعد أن حاصر الجزيرة لمدة ثمانية شهور اضطر بعدها للانسحاب[٣]. وفى سنة ٩٤٩ م ، أرسل قسطنطين السابع حملة لاسترداد كريت منيت بالهزيمة[٤].ولم يقدر للبيزنطيين أن يستردوا كريت إلا فى سنة ٩٦١ م عندما حشد الإمبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ – ٩٦٣ م) قوة بحرية هائلة لم يشهد لها البحر المتوسط مثيلاً تتألف من ألفى سفينة حربية وألف وثلاثمائة وستين سفينة للمؤن والإمدادات ، وجعل على قيادتها قائده الشهير نقفور فوقاس [٥] .

١- Genesius, Regna, p 48;Theophanes Continuatus, Historia, pp 299-300; Cedrenus, Historiarum, pp 226-227

٢- Theophanes Continuatus, Historia, pp 368; Cedrenus, Historiarum, pp 261-262; Monachus, Imperatorum, pp 862- 863;
وللمزيد عن هذا الهجوم ، انظر : إسمت غنيم ، كريت ، ص ص ١٨٥ – ٢٠٠ .

٣- Bury, E. R.E. p. 231;Bayens, Byzantine Empire, Home University Library, London, 1935, p. 143.
وانظر أيضاً : على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية ، ص ٣١٦ .

٤- Constantine Porphyrogenetus, De Ceremoniis Aulae Byzantinae, ed. Reiske, J.J. and Bekker, C. S. H. B. , Bonn, 1829 – 1830, pp 664-678; Cedrenus, Historiarum, p 336.
وانظر أيضاً : إسمت غنيم ، كريت ، ص ٢٢٤ – ٢٢٧ .

٥- Symeon Magister, Chronographia, pp 758 –760 ; Theophanes Continuatus, Historia, pp 340-341; Zonaras, Epitome, Tome III, pp 490 - 492

أما صقلية فقد كانت – كما سبقت الإشارة – جبهة ثانية للقتال فتحت أمام الإمبراطورية البيزنطية بالتزامن مع استيلاء الأندلسيين على كريت فى سنة ٨٢٧ م . فكان من الأهداف التكتيكية للهجوم البيزنطي على دمياط تخفيف الضغط على القوات البيزنطية فى صقلية [١]. فإلى أى مدى نجح البيزنطيون فى تحقيق هذا الهدف ؟ إن الثابت من تتبع تاريخ صقلية منذ سنة ٨٤١ م ، أى قبل الهجوم البيزنطي على دمياط بأكثر من عشر سنوات تقريباً ، أن مد الفتوحات الإسلامية فى الجزيرة قد تصاعد فى هذه الفترة ، فهل نجح البزنطيون بهجومهم على دمياط فى درء هذا الخطر ، والحيلولة دون تقدم المسلمين فى صقلية وتخفيف الضغوط على القوات البيزنطية ؟

إن الواقع التاريخي يقول غير ذلك . إذ توالت الفتوحات الإسلامية فى صقلية بعد الهجوم البيزنطي على دمياط بنفس وتيرتها قبل هذا الهجوم ، فنرى العباس بن الفضل يستولى على بثيرة Butera فى ٨٥٣ م ، ثم على خمسة حصون فى ٨٥٦ م ، ثم نراه يغزو تورمينا Taormina وسيراكوزا Syracuse فى ٨٥٧ وتسلم له مدينة كيفالو Cefalu ، وأخيراً استسلمت له مدينة إنا Enna (قصريانة) فى ٢٦ يناير ٨٥٩ م ، فاستولى على قلعتها التى ظلت تقاوم لثلاثين سنة ، فأعدم حاميتها وابتنى فيها مسجداً ، واستمرت الانتصارات الإسلامية على البيزنطيين فى صقلية وتوجت فى أغسطس ٩٠٢ م ، بسقوط تورمينا آخر معقل بيزنطي فى الجزيرة فى يد المسلمين [٢] .

وإذا كان البيزنطيون قد حققوا بعض الإنتصارات على مسلمي كريت فى أول عهد بازيل الأول ، فإن جهوده راحت أدراج الرياح فيما يتعلق بصقلية . فكانت الهزائم البيزنطية المتتالية أمام المسلمين دليلاً على إخفاق الإمبراطورية فى تحقيق هدفها الاستراتيجي الأكبر فى ذلك الوقت وهو التخلص من التهديد الإسلامي للوجود البيزنطي فى البحر المتوسط فاستمر

---

١ - انظر ما سبق ، ص ١٨-١٩.

٢ - إبراهيم طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ص ٩٤ – ٩٦ .

هـذا الـتهديد قائماً حتى سنة ٩٦١ م بالنسبة لكريت ، وسنة ٩٠٢ م بالنسبة لصقلية [١] .

وأمـا النتيجة الثانية للهجوم ، وهى تنبيه المسلمين إلى ضرورة بناء أسـطول قـوى قادر على مواجهة الهجمات المفاجئة ، فتنطوى على مفارقة تاريخـية تسـتحق الـتوقف عـندها . فقد كان النجاح التكتيكي الذى حققه البيزنطيون بتدمير دمياط وأشتوم تنيس باعتبارهما مركز إمداد المسلمين فى كريـت بالأسلحة والعتاد ، والاستيلاء على الأسلحة الموجودة فى المخازن ، وإحـراق خـزانة القلـوع ، إشارة تنبيه كان لها أبعد الأثر فى قيام سلطات الخلافـة فى بغداد والسلطات الإقليمية فى الفسطاط باتخاذ إجراءات دفاعية جادة . فقد زيد فى حجم الأسطول زيادة ملموسة ، وشيدت تحصينات كثيرة فـى المـدن الساحلية ، وتم تحسين نظام المراقبة ، وتجنيد بحارة وجند جدد وتقوية الحاميات الاستراتيجية[٢].

والمفارقـة هـنا هى أن النجاح الساحق الذى حققه البيزنطيون فى حملتهم على دمياط انقلب عليهم ليصبح حافزاً لدى المصريين لإنشاء أسطول جـديد كـان نـواة للقوة البحرية الهائلة زمن الفاطميين[٣] وكأنما أراد البيزنطـيون – علـى المستوى الاستراتيجي القضاء على مصدر القوة التى تهـدد سواحلهم فإذا هم يخلقون لأنفسهم تهديداً أشد أثراً وأكثر قوة تمثل فى الأسطول المصري الضخم فى العصر الفاطمي .

والواقـع أن البيزنطيين قد تنبهوا فعلاً إلى صحوة البحرية المصرية فـى أعقـاب هجومهـم علـى دمياط فى ٨٥٣ م ، وحاولوا عرقلة جهود المصـريين لبناء أسطولهم وإصلاحه . فقد عاودوا الإغارة على دمياط سنة ٨٥٤ م ، وعـاثوا فيها فساداً . وانفرد المقريزى بذكر هذه الغارة، وجاء فى

١- Jenkins, R.,Byzantium, The Imperiel Century 601-1071, AD, London,1966, pp. 190 - 191

٢- Kubiak, Damietta, p 45.

٣- Kubiak, Damietta, pp.64-65

روايته أن البيزنطيين طرقوا دمياط في نحو مائتي مركب فقاموا يعيثون في السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك[1]. وذهب المؤرخ المحدث جنكنز إلى أن قائد هذه الحملة ربما كان ثيوكتيستوس [2]، ويؤيد ذلك ما أورده المؤرخ موريس كنار الذى يذهب إلى أن الهدف من الغارة كان إعاقة بناء دور صناعة السفن ، وإنشاء الأسطول المصري أو عمليات الإصلاح التى أمر بها المتوكل[3] ولكن ذلك لم يكن له أثر كما يتضح من تسلسل الأحداث فيما بعد ونمو القوة البحرية المصرية فى عصر الطولونيين والفاطميين .

أما عن اهتمام المصريين بتنمية قوتهم البحرية وبناء أسطولهم القوى ، فنجد المقريزى يصور لنا هذا الاهتمام احسن تصوير فيقول : " فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر وأنشئت الشواني برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون لمحاربة العدو ، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، هذا ، وللناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه لا جرم إنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ولكل أحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه " [4] يفهم من شهادة المقريزى جملة أمور منها أن الخلافة العباسية قد تنبهت إلى ضرورة العناية بالقوة البحرية فى مصر وأن هذه العناية قد امتدت لتشمل بناء أسطول قوى قادر على مواجهة مثل هذه الهجمات المفاجئة وتزويد هذا الأسطول بالرجال وتدريبهم وإعدادهم لمحاربة الأعداء ، وأن العمل فى خدمة الأسطول كان شرفاً يسعى إليه الناس بشتى السبل . وربما كانت رواية المقريزى عن السعي إلى الخدمة في الأسطول

---

١ - المقريزي ، المواعظ ، ج ١ ص ٤٠١ .

٢- Jenkins, Byzantium, , p159.

٣- Canar, The Muslim World, p 713 .

٤ - المقريزي ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

روايته أن البيزنطيين طرقوا دمياط فى نحو مائتي مركب فقاموا يعيثون فى السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك[1]. وذهب المؤرخ المحدث جنكنز إلى أن قائد هذه الحملة ربما كان ثيوكتيستوس [2]، ويؤيد ذلك ما أورده المؤرخ موريس كنار الذى يذهب إلى أن الهدف من الغارة كان إعاقة بناء دور صناعة السفن ، وإنشاء الأسطول المصري أو عمليات الإصلاح التى أمر بها المتوكل[3]. ولكن ذلك لم يكن له أثر كما يتضح من تسلسل الأحداث فيما بعد ونمو القوة البحرية المصرية فى عصر الطولونيين والفاطميين .

أما عن اهتمام المصريين بتنمية قوتهم البحرية وبناء أسطولهم القوى ، فنجد المقريزى يصور لنا هذا الاهتمام احسن تصوير فيقول : " فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر وأنشئت الشواني برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون لمحاربة العدو ، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، هذا ، وللناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه لا جرم إنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ولكل أحد من الناس رغبة فى أن يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه " [4] . يفهم من شهادة المقريزى جملة أمور منها أن الخلافة العباسية قد تنبهت إلى ضرورة العناية بالقوة البحرية فى مصر وأن هذه العناية قد امتدت لتشمل بناء أسطول قوى قادر على مواجهة مثل هذه الهجمات المفاجئة وتزويد هذا الأسطول بالرجال وتدريبهم وإعدادهم لمحاربة الأعداء ، وأن العمل فى خدمة الأسطول كان شرفاً يسعى إليه الناس بشتى السبل . وربما كانت رواية المقريزى عن السعي إلى الخدمة فى الأسطول

---

١ - المقريزي ، المواعظ ، ج ١ ص ٤٠١ .

٢- Jenkins, Byzantium, , p159.

٣- Canar, The Muslim World, p 713 .

٤ - المقريزي ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

صـــادقة فـــيما يتعلق بالمسلمين ، أما الأقباط ، فقد أورد ساويرس بن المقفع روايـــة عـــن موقفهم من العمل فى الأسطول تناقض ما ذكره المقريزى عن التحمس لهذا العمل . ففى سيرة حياة البطريرك قزما نجد رواية للأحداث التى وقعت " فى جميع المـــدن الساحلية لأن اليونانيين جاءوا إلى دمياط ونهبوهـــا " نقتطف منها الجزء التالي عن تكليف المسيحيين بالعمل على السفن : " ..... وأرســـل المســـيحيون إلـــى السفن ولم يعط لهم درهم واحد مقابل الرحلة ... وكـــانوا يجـــبرون على مراعاة هذا القانون الظالم وقد فعل الحاكم ذلك بسبب كراهيـــته الشـــديدة للمسيحيين فوضع قائمة بالبلد كلها وأجبر عدداً من الرجال علـــى الإبحـــار مع الأسطول . وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يكن يدفع لهم ثمن الأســـلحة بل كان يقوم بالتفتيش عليهم ويتحرش بكل من يجده بلا سلاح منهم ويفـــرض عليه غرامة جائرة ويجبره على شراء تجهيزات يقاتل بها بل كانوا يـــأخذون الضعفاء الذين لم يكونوا يصلحون للسفر أو يعرفون شيئاً عن مهنة الملاحة أو فن القتال .." [1].

وربما كانت هذه الرواية تبالغ فى وصف الاضطهاد الذى تعرض له المســـيحيون علـــى يـــد الحاكم عنبسة بن إسحاق الذى كان من أكثر الحكام ورعـــاً وعدلاً [2] ، إلا أنها تقدم شهادة عن موقف أقباط مصر من الخدمة فى الأسطول . ومما يؤيد رواية ساويرس بن المقفع عن إجبار الرجال على العمـــل فى الأسطول ذلك الخطاب المكتوب على بردية محفوظة فى متحف بنلســـفانيا والـــذى اكتشفه ديلافيدا والموجه إلى شخص يدعى (أبو جعفر) صححه الناشر جروهمـــان إلى (أبو حفص) . وقد ورد فى هذا الخطاب : " أى أبـــا حفـــص ، لو انك رأيت الارتباك والعسر اللذين يعيش فيهما الناس الآن ! إنهم يخطفون البحارة وغير البحارة . ويخطفون أى شخص يجدونه . وكـــل يـــوم يهجمون بعنف من كل مكان. أننى أسأل الله أن يخـــفف عنا برحمته .. " [3] .

---

١ – ابن المقفع ، بطاركة الإسكندرية ، ج ٢ ، ٨ .

٢ – انظر : Kubiak, Damietta, p 57.

٣– Kubiak, Damietta, p 55.

ومن هنا ، فإنه يمكن القول بأن قيمة هاتين الشهادتين من المقريزى، ثـم مـن سيرة حياة البطريرك قزما وبردية متحف بنلسفانيا تكمن فى أنهما تصـدران عـن وسطين شديدي الاختلاف ، هما الوسط المسيحي والوسط الإسـلامي [1] وهمـا معـاً يـدلان على حرص الدولة على توفير الأفراد اللازميـن للخدمة فى الأسطول باعتبار ذلك جزءاً من خطة شاملة للنهوض بالقوات البحرية المصرية فى أعقاب الهجوم البيزنطي على دمياط حتى وإن كان ذلك بما يشبه نظام التجنيد الإجباري للخدمة فى الأسطول .

الخاتمة

هكذا كانت أحداث الهجوم البيزنطي على دمياط سنة ٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ .، وقد حاولنا من خلال عرضنا لوقائع هذا الهجوم البيزنطي على دمياط والنتائج التى تمخض عنها طرح رؤية جديدة للحدث تقوم على دعامات ثلاث هى:

١- وضع الحدث فى إطاره الصحيح باعتباره حلقة من حلقات الصراع البحري البيزنطـي الإسلامي فى منتصف القرن التاسع الميلادي / القرن الثالث الهجري ، وتم ذلك من خلال استعراض المقدمات التاريخية للهجوم و تحديد الهدف الاستراتيجي للهجوم ، وأيضاً تحديد الأهداف التكتيكية اللازمة لتحقـيق هـذا الهدف والتى تمثلت فى تدمير دمياط باعتبارها مركزاً لإمداد مسـلمي كريت بالأسلحة والسفن والعتاد ؛ والتخفيف من حدة ضغط القوات الإسـلامية علـى القوات البيزنطية فى صقلية . و عرض وقائع الهجوم من خـلال استعراض مقارن لروايات المؤرخين العرب . و استخلاص النتائج التى تمخض عنها الهجوم .

٢- **إبراز أهمية الدور الإقليمي والدولي لمصر** فيما يتعلق بهذا الهجوم مع إلقـاء الضوء على الجوانب الإيجابية فى الشخصية المصرية كما تجلت فى مواجهـته . فقـد كانت الصلة القوية بين مصر وكريت ، وقد تطورت هذه العلاقـات بعد استقرار الأندلسيين بالجزيرة ، وأصبحت مصر بمثابة مركز الإمداد الأول لعملياتهم ضد الدولة البيزنطية . أى أن مصر بكل ما تمثله من

١- Kubiak, Damietta, p 58.

ثقل فى ميزان العلاقات الدولية فى البحر المتوسط آنذاك – أصبحت فى نظر الدولة البيزنطية عمقاً استراتيجياً لكريت التى تنطلق منها الهجمات ضدها . وإزاء عجـز البيزنطييـن عن كف خطر مسلمي كريت ، لم يكن أمامهم إلا توجـيه الضـربة إلى العمق الاستراتيجي لهذه الجزيرة . ولكن توجيه هذه الضربة إلى مصر لم يقابل بالسكوت ، ففى الوقت الذى خلت فيه المدينة من حاميتها ، أدرك الرجال حتمية المقاومة والذود عن حياض المدينة.

أما عن المقاومة الشعبية والرسمية فقد أثبت البحث اختلاف روايات المؤرخيـن العـرب لدور المقاومة الشعبية والرسمية للهجوم على دمياط ، وتراوحـت هـذه الـراويات ما بين إبراز دور ابن الأكشف ، الذى أخرجه أعوانـه مـن السجن ليتزعم حركة المقاومة ، وأثر هذه المقاومة فى خروج الروم من دمياط ، وذكر إعلان النفير العام وخروج الوالى عنبسة بن إسحاق إلـى دمـياط على رأس جيشه وعدم إدراكه للروم ، وبالتالى عدم وقوع أى قتال بين الجيوش المصرية وقوة الغزو البيزنطية .

وأخـيراً كانـت هـذه صورة لحلقة من حلقات الصراع البيزنطي الإسـلامي وصـل فيها التنافس الشديد إلى أبعد مدى ، وفى أكثر من مجال ومـيدان ، وأصبح الطابع العام هو أن كل قوة كانت ترقب الأخرى وتهددها فى عمقها الاستراتيجي ولا تغفل النظر عنها حتى لا تؤخذ على غفلة منها .

بيان بالمختصرات ومصادر البحث ومراجعه

أولاً :- بيان بالمختصرات :

B.	: Byzantion.
B. Z	: Byzantinische Zeitschrift.
C. M. H.	: Cambridge Medivil History.
C. S. H. B.	: Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.
D. A. I	: De Adminilstrando Imperio
D. C.	: De Cereimonus.
E. H. R.	: English Historical Review.
E. R. E.	: A History of the Eastern Roman Empire
J. H. S.	: Journal of Hellenic Studies.
J. M. S.	: A Journal of Mediaval Studies .
P. G. M.	: Patrologia Graeca Ed Migne.
P. L. M.	: Patrologia Latina, Ed Migne.
P. O.	: Patrologia Orientale.
R. H.	Revue d' Histerique.
R. E. B.	Revue d' Etude Byzantine.

ثانياً :- المصادر العربية :

- **ابن الأثير ، الكامل :**

ابـــن الأثير : (ت ٦٣٠هـــ / ١٢٣٣م) : أبو الحسن علي بن احمد بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولي ، ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م ، (وطبعة صادر، بيروت ، ١٩٦٥).

- **ابن المقفع ، بطاركة الإسكندرية :**

ابن المقفع : ساويرس (ت. ٣٧٦ /٣٧٧هـــ) : تاريخ بطاركة الإسكندرية ، إعـــداد الأنـــبا صـــموئيل ، أسقف شبين القناطر وتوابعها ، النعام للطباعة والتوريدات ، ١٩٩٩.

- **ابن إياس ، بدائع الزهور :**

ابن إياس : (ت ٩٣٠هـــ / ١٥٢٣م) : أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى: بدائـــع الـــزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفي ، الجزء الأول ، القسم الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٠٢– ١٩٨٢.

- **ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة :**

ابـــن تغـــري بـــردي : (ت ٨٧٤هـــــ / ١٤٦٩م) : جمـــال الدين أبو المحاســـــن يوســـف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق إبراهـــيم علـــي طرخان ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، القاهـــرة ، ١٩٦٣، الجزء الثاني.

ابن خلدون ، العبر :

ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـــ / ١٤٠٥م) :عبد الرحمن بن محمد :كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، القاهرة / بيروت ، ١٤٢٠هـــ / ١٩٩٩.

- **ابن عبد الحكم ، فتوح مصر :**

ابـــن عـــبد الحكم : (ت ٢١٤هـــ / ٨٢٩ م) :عبد الرحمن : فتوح مصر وأخبارها ، القاهرة ١٩٧٤.

- **ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب :**

ابن عذاري : (ت أواخر القرن السابع الهجري / أواخر القرن الثالث عشر الميلادي) : أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشى : البيان المغرب في أخبار الأندلـــس والمغرب ، نشر وتحقيق س. كولان ، وليفي بروفنســـال ، الجزء الأول ، ليدن ، ١٩٤٩ ، الجزء الثاني ، ١٩٥١.

- **ابن مماتي ، قوانيين الدواوين :**

ابـــن مماتـــي : (ت ٦٠٦ هـــــ / ١٢٠٩م) : السعد بن المهذب : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣.

- **البلاذري ، فتوح البلدان :**

الـــبلاذري : (ت ٢٧٩هـــــ / ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيي بن جابر : فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، طبعة بيروت ، ١٩٨٧م.

- **الـــــذهبي ، دول الإسلام :**

الـــــذهبي : (ت ٧٤٦ أو ٧٤٨ هـــ / ١٣٤٨م) :الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين الذهبى : دول الإسلام ، عني بطبعه ونشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، دولة قطـــر ، ١٩٨٨م.

- **الســـــيوطي ، تاريخ الخلفاء :**

الســـــــيوطي : (ت ٩١١هـــ / ١٥٠٥م) :جـــلال الدين عبد الرحمن بن أبـــي بكـــر : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة ، ١٣٩٥هـــ/١٩٧٥م.

• **الطبري ، تاريخ الرسل :**

الطـبري : (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

• **الكندي ، ولاة مصر :**

الكـندي : (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١ م) :أبو عمر محمد بن يوسف المصرى : كتاب ولاة مصر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٩٨٧.

• **المقري ، نفح الطيب :**

المقري : (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٣ م) : أحمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ١٠ أجزاء ، تحقيق وتعليق محمد محيي الديـن عبد الحميد، الطبعة الأولي ، القاهرة (مطبعة السعادة) ، ١٩٤٩م – ١٣٦٧هـ.

• **المقريزي ، المواعظ :**

المقريزي : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) : تقي الدين أحمد بن علي :كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ، ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م.

• **المقريزي ، الحنفا :**

المقريـزي : اتعـاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

• **المقريزي ، السلوك :**

السـلوك لمعـرفة دول الملـوك ، تحقيق محمد مصطفي زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٧.

- **النعمـــان ، المجالس :**

النـعمـــان : (ت ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م) : القاضي أبـو حنيفة بن محمد المغـربـي : المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقيه ، دار المنتظر ، بيروت ، ١٩٦٦.

- **اليافعـــي ، مرآة الجنان :**

اليافعـــي : (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م) : أبـو محمـد عبد الله بن اسـعـد بن علي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، وضـع حواشيه خليل المنصور ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م

- **ياقوت الحموي ، معجم البلدان :**

يـاقوت الحمـوي : (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م) : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى : معجم البلدان ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥.

- **اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبى :**

اليعقوبي : (ت ٢٩٢ هـ / ٨٩٧ م) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهـب الكاتـب المعـروف بابن واضح الاخبارى : تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ،١٩٦٠.

ثالثاً :- المراجع العربية والمعربة :

- **ابراهيم العدوي ، الأساطيل العربية :**

إبراهيم العدوى (دكتور) : الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧.

- **ابراهيم العدوي ، إقريطش :**

إبراهيم العدوى (دكتور) : إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، أكتوبر ١٩٥٠.

- **ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية :**

إبراهـــيم العدوى (دكتور) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، مكتبة نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ، ١٩٥١.

- **إبراهيم علي طرخان ، المسلمون في أوروبا :**

إبراهـــيم علـــي طـــرخان (دكتور) : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطي ، مشروع الألف كتاب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦.

- **أرشيبالد لويس ، القوي البحرية :**

أرشيبالد لويس : القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٥٠٠ – ١١٠٠م ، ترجمة أحمد محمد عيسي ، القاهرة ، ١٩٦٠.

- **إسمت غنيم ، كريت :**

إســـمت غنيم (دكتورة) : الأمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣.

- **البدراوي زهران ، علم اللغة :**

البدراوي زهران (دكتور) : في علم اللغة التاريخي ، دراسة تطبيقية علي عربية العصور الوسطي ، دار المعارف ، ١٩٧٩.

• **جمال الدين الشيال ، تاريخ دمياط :**

جمـــال الديـــن الشيال (دكتور) : مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا ، مطبعة مدرسة دون بوسكو ، الإسكندرية ، ١٩٤٩.

• **درويش النخيلي ، السفن الاسلامية :**

درويـــش النخيلـــي (دكتور) : السفن الاسلامية علي حروف المعجم في : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣.

• **سعاد ماهر ، البحرية :**

سعاد ماهر (دكتورة) : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧.

• **السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية :**

السيد الباز العريني (دكتور) : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٢

السيد عبد العزيز ، سالم وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية :

السيد عبد العزيز (دكتور) ، سالم وأحمد مختار العبادي (دكتور) : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، جزءان.

• **السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب :**

الســـيد عـــبد العزيز سالم (دكتور) : دراسات في تاريخ العرب – العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .

- **Genesius,J., Regna,**

  Genesius,J., Regna. Ed. Lachman, C., in C S. H. B., Bonn, 1834.

- **Georgius Hamartolus, Chronicon,**

  Georgius Hamartolus Monachus, Chronicon, P.G.M., Tome CX, Paris,1863, Cols. 41-1286 .

- **Leo Grammaticus, Chronographia,**

  Leo Grammaticus, Chronographia, ed. Bekker, I, C. S. H. B., Bonn, 1842

- **Monachus, G., (Imperatorum),**

  Monachus, G., (Imperatorum), Vita Recentiorum Imperatorum, in Theophanes Continuatus, C. S. H. B. , 1838, pp. 761 – 924.

- **Nicephorus, Breviarum,**

  Nicephorus Patriarchae, Breviarum Historicum, Tome C, P.G.M., Paris, 1860, Cols. 875-994.

- **Symeon Magister, Chronographia,**

  Symeon Magister (Logothete), Chronographia, in Theophanes Continuatus., ed. I. Bekker (Bonn, 1838) pp.601 – 760.

- **Theophanes, Chronographia,**

  Theophanes, Chronographia, P.G.M. Tome CVIII, Paris, 1863, Cols. 9-1010.

- **Theophanes Continuatus, Historia,**

  Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bekker, I ,C. S. H. B., Bonn, 1838, pp 1 – 484.

- **Zonaras, Epitome,**

  Zonaras, I., Epitome Historiarum, ed. M. Pindar, B. Buttner, Wobst, 5 vols, Bonn, 1841- 1897..

خامساً :- المراجع الأجنبية :

- **Ahrweiler, la Mer,**

  Ahrweiler, Helen, Byzance et la Mer, marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance au VII au XV Siecles, Paris, 1966.

- **Amari, Sicila,**

  Amari, M., Storia dei Muslmani de Sicila, Vol. I, Siconda Edizione Modificata, Catania,1933.

- **Anastos, Iconoclasm,**

  Anastos, M.V., Iconoclasm and Imperial Rule , in Cambridge Medieval History, vol IV, part 1, second ed., Cambridge 1967.

- **Bayens, Byzantine Empire,**

  Bayens, N.H. , the Byzantine Empire, Home University Library, London, 1935.

- **Brooks, the Relations,**

  Brooks, E.W., the Relations between the Empire and Egypt from the New Sources, in B.Z., vol.XVII, Bruxelles, 1913.

- **Brooks, the Struggle,**

  Brooks, E.W., the Struggle with the Saracens , 717-867, in C. M. H., vol IV, Cambridge , 1936.

- **Brooks, Crete,**

  Brooks, E.W., The Arab Occupation of Crete, in: English Historical Review, XXVIII, 1913.

- **Bury, E. R. E ,**

  Bury, J.B., A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, 802-867, London, 1912.

- **Canard, the Muslim World,**

  Canar, Marius, Byzantium and the Muslim World to the Middle of the Eleventh Century, in: C.M.H., Vol.IV, Part I, Cambridge, 1967.

- **Diehl, Moyen-âge ,**

  Diehl, Charles, Histoire du Moyen-âge , T.III, Le Monde Oriental de 395 à 1081, Paris, 1936.

- **Finlay, Hist of the Byz Empire,**

  Finlay, George, History of the Byzantine Empire from DCCXVI to MLVII, London, 1906.

- **Gregoire, Etudes,**

  Gregoire, H., Etudes sur le Neuvieme Siecle, in : Byzantion Revue, Tome VIII, Bruxelles, 1933.

- **Jenkins, The Imperiel,**

  Jenkins, R., Byzantium, The Imperiel Century 601-1071, AD, London, 1966.

- **Kubiak, Damietta,**

  Kubiak, W.B., the Byzantine Attack on Damietta in 853 and the Egyptian Navy in the 9th Century in : Byzantion, Vol. XI, Bruxelles, 1970.

- **Lot, Armées,**

  Lot, F., L'Art Militaire et les Armées au Moyen Âge en Europe et dans le Proche Orient, Tome Premier, Paris, 1946, p 63.

- **Ostrogorsky, State,**

  Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Rutgers University Press, 1957.

- **Vasiliev, A. A. Hist of Byz Empire ,**

  Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire 324 – 1453, the University of Wisconsin Press, 1952.

- **Zenghelis,C., le Feu Gregois,**

  Zenghélis,C., le Feu Gregois et les Armes a Feu des Byzantins, in Byzantium, Tome VIII, Bruxelles, 1932.

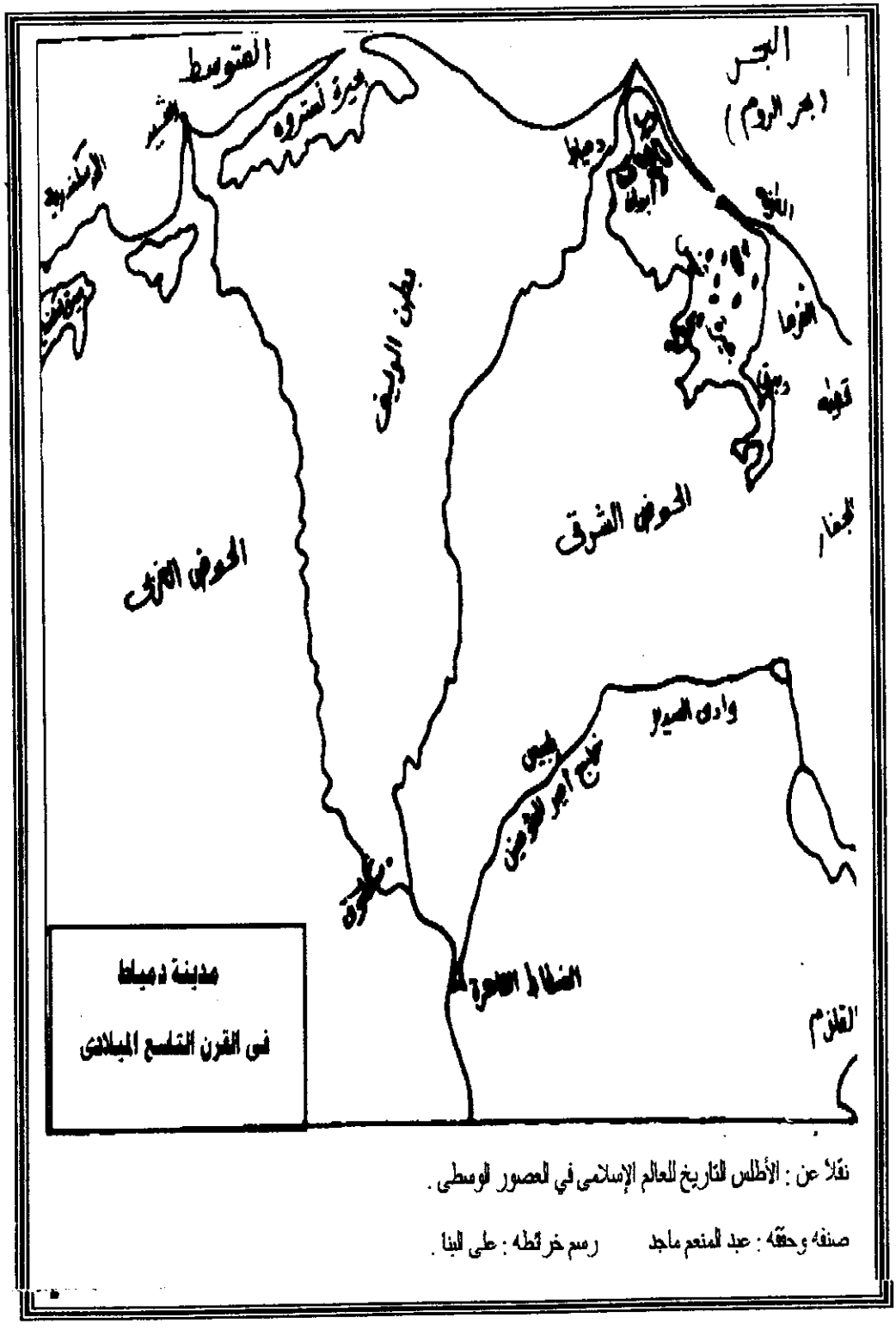

نقلاً عن : الأطلس للتاريخ للعالم الإسلامي في العصور الوسطى .

صنفه وحققه : عبد المنعم ماجد رسم خرائطه : على البنا .